دراسات فى الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

تيارات منحرفة فى التفكير الدينى المعاصر

للدكتور على العمارى

العدد ١٦٩
السنة الخامسة عشرة
١٥ من ربيع الثانى سنة ١٣٩٥ هـ
٢٧ من ابريل سنة ١٩٧٥ م

يشرف على اصدارها
محمد توفيق عويضة

اللہ

جَلَّ جَلَالُہٗ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« ... فمن جاءه موعظة من ربه
فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله
ومن عـاد فأولئك أصحاب النـار
هم فيهـا خالدون »

(قرآن كريم)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعه باحسان الى يوم الدين •

أما بعد •

فهذه كلمات أدى اليها النظر فى بعض ما نشر من أبحاث وآراء ، بدا لى أن فيها انحرافا عن الجادة ، وبعدا عن النصوص الصريحة فى الاسلام •

وقد خفت أن تقع هذه المباحث وهذه الآراء الى من لا بصر له بأصول الاسلام وفروعه ، فيضل بها ، أو على الأقل يتسلل الشك الى عقيدته، وتتطرق الظنون الى معارفه الاسلامية •

ومما يؤسف له أشد الأسف أن بعض هذه الكتب التى أبنت عما فيها من انحراف قد دخلت دورا للعلم كثيرة ، حتى لقد خدعت فى هذه الكتب بعض الجامعات الاسلامية التى تتحرى كل التحرى فيما تضعه بين أيدى طلابها ، ولم تدر بما فيها من زيغ وأباطيل •

وقد حدثت مرة بعض القائمين على أمر جامعة من هذه الجامعات فى شأن كتاب من هذه الكتب ، وأشرت له الى بعض

ما فيه فارتاع ، ثم ألقى اللوم على الحكومات الاسلامية التى تسمح بنشر مثل هذه الكتب ، وعلى الذين يعنون بالدراسات الاسلامية حيث لم يحذروا منها ، ويبينوا ما فيها من أخطاء دينية أو علمية ، فقلت له : فاتك أن تلوم القائمين على أمور دور العلم اذ لم ينظروا فى كل كتاب قبل أن يقدموه لطلابهم .

أما عن الحكومات الاسلامية فانا معك فى أنها مقصرة فى هذا الشأن ، وأذكر أن بعض الهيئات الاسلامية حاولت مرة مصادرة كتاب من هذه الكتب ، ولكن كان للمؤلف جاه عند ذوى السلطان استطاع به أن يرفع الأيدى عنه ، وأن هذا الكتاب انتشر فى جميع الأقطار الاسلامية حتى لقد ظهر فى مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل ظهوره فى القاهرة التى طبع فيها .

وأما عن الكتاب الذين يعنون بالدراسات الاسلامية فأنبئك أنى كتبت عن هذا الكتاب بحثا مطولا فى مجلة من أكثر المجلات الاسلامية ذيوعا ، ولكنكم لا تقرءون هذه المجلات . بل يكفى — فيما أظن — أن يحمل الكتاب اسم القرآن الكريم ، أو اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، لتقبلوا عليه ، وتقدموه لطلابكم .

* * *

ولم أعن فى هذه النظرات بالحكم على عقيدة صاحب فكرة أو رأى ، فهذا لايعنينى بقدر مايعنينى بيان ماف فكرته أو رأيه من انحراف، أما دخيلة نفسه فأمرها الى ربه ، على أن هذا الحكم اذا كان يعنى بعض القارئين — فالسبيل اليه ميسرة مما يقرؤه فى هذه النظرات ، ففى هذه الأفكار ما ينكر ما علم من الدين بالضرورة ، وفيها ما هو انكار صريح لبعض آى

القرآن الكريم ، ومنها ما هو مصـــادرة للمشهور من آراء العلماء التى بنيت على أدلة قوية ، وبراهين واضحة .

وليس يعنينى ــ أيضا ــ أن يكون هذا أو بعضه قد صدر عن عمد أو عن غير عمد ، عن سوء نية ، أو عن جهل وغفلة .

* * *

وقد كنت أتحدث مع أحد علمائنا فى شأن أحد هؤلاء الذين انحرفوا فيما كتبوا ، ثم استقاموا على الطريق . فقال : دعوا هذا الرجل فانه يؤدى الآن أعظم خدمة للاسلام بما يكتبه من أبحاث وما يذيعه من أحاديث كلها تحبب الشباب فى الاسلام ــ فقلت له : انه ــ ولا شك ــ مشكور على صنيعه هذا . ولكن ألا ترى معى أن ظهوره فى مظهر المؤمن العميق الايمان يجعل نشر الرد على آرائه الفاسدة أوجب علينا ، وأكثر الزاما لنا ، ذلك أنه حين كان متهما فى دينه كان الناس يأخذون آراءه بشىء كثير من الحيطـــة والحـــذر ، أما الآن فالذين يقرءون لـــه ، ويســـتمعون اليه ولم يكن لهم علم بماضـــيه يخدعون بكل ما يطالعهم من آرائه ، ويأخذونها مأخذ القضايا المسلمة .

ثم هنـــاك أمر على جانب كبير من الأهميـــة . ذلك أن أولا واجب على من اهتدى الى الطريق القـــويم أن يعلن على الملأ اعترافه بخطئه فيما أخطأ فيه ولست أفهم لماذا يصر هؤلاء ، على بقاء آرائهم الفاسدة متداولة بين الناس دون أن يعلنوا رجوعهم عنها ، ماداموا صادقين فى سلوكهم الجديد ، واذا كان العلماء قد بينوا بالأدلة الحاسمة من كتاب الله ، وسنة رسوله ، خطأ رأى من الآراء ، وبعده عن حقائق الدين ، فما الذى يمنع

صاحبه ـ ان صدقت توبته ـ أن يثوب الى الحق ، وأن يرجع عما أذاع من باطل ، وأن يقول للناس بملء فيه . لقد أخطأت !

وآخر ما أفكر فيه من نشر هذه الكلمات هو التشهير بأحد ، أو الاساءة الى كتاب أو مفكر ، لأن الذى يهمنى هو تبصير القارئين بما فى هذه الكتب ، وهذه الأبحاث من بعد عن حقائق الاسلام ، أو تنكر لآدابه ، أو اساءة الى رجاله .

والله أسأل أن يبلغ بهذه الكلمات ما قصدته من نشرها .

انه سـميع مجيب الدعاء .

المؤلف

شَعَائِرَ ٱللَّهِ مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ

فى أسبوع واحد قرأت مقالين فى موضعين مختلفين من صحفنا ومجلاتنا ، وكان المقالان عن (الحج) وكلا الكاتبين أدى فريضة الحج هذا العام ، وأخذ كل منهما يتحدث عن الآثار التى تركتها مشاهدة الأماكن المقدسة فى نفسيهما وعما يـدور بخـاطر كل منهمـا مما يتعلق بمناسك الحج وغيرها من شعائر الاسلام .

وقد آلمنى أشد الألم أن كلا من الكاتبين تعرض لمسائل دينية ، ولمسها لمسا عنيفا دون أن يكلف نفسه الرجوع الى المصـادر الأساسية ليتزود منها ما يعينه على التحدث فى أمور خطيرة ، بل ان أحدهما لم يكتب الآيات القرآنية التى جاءت فى مقاله كتابة صحيحة ، ومع ذلك سمح لنفسه بأن يصف بعض ما ثبت فى السنة الصحيحة بأنه (أساطير) .

وكان السر فى اندفاع الكاتبين الى ما تناولاه كما قال أحدهما ـ هو أن (الغموض ، وعدم الاقتناع يحيط بكثير من المناسك ، مناسك الحج طبعـا ، حتى تبدو كأنها طقوس بوذية ، يلزمها فى عصرنا الحالى الاقناع ، والتحليل العلمى والمنطقى الذى قـام على أساسه الدين الاسلامى كله) . وعلى ذلك فهو يـرى أن من الواجب على العلماء أن يتكلموا ، ويوضـحوا

الغموض بأسلوب منطور مقنع ، حتى لا يكـون الحج ـ كما قال الكاتب أيضا ـ مناسك آلية يؤديها الفرد ، ويعود يحمل لقب (حاج) دون أن تؤثر فى معنوياته .

والشعيرة الأولى التى أثارت الكاتبين هى الذبائح التى يقدمها الحاج شكرا لله على ما وفق من أداء الفريضة ، أو جبرا لما فات من أعمال واجبة ،حتى يكون الحج تاما كاملا . ويحدثنا أحدهما بأسلوب لا يخلو من سخرية فيقـول عن (رجم الشياطين) ان العلماء يؤكدون أنه من المناسك ، وأن الذى لا يفعله عليه أن يزيد اللحوم المتعفنة بذبيحة جديدة .

أما الآخر فيسهب فى هذا النسك ، ولا ينسى الكلام عن الحالة الاقتصادية التى تحتم أن يقتصد الحاج فى الذبائح ، أو أن يوضع بديل من هذه الذبائح . ولنترك أحدهما يحدثنا كما نقل عنه رئيس تحرير احدى الصحف فيقـول : وما زلت أذكر كيف صحونا فجر ذات يوم لنؤدى فريضة الصلاة بالحرم المكى ، وبعد أن عدت الى الفندق مع واحد ممن كان يصحبنا ، قابلنا عند الباب صديقان يتأهبان للذهاب الى المذبح لاختيار الهدى لنفتدى به تمتعنا أى التحلل بعد العمرة بكل تفاصيلها : من طواف حول الكعبة ، الى السعي بين الصفا والمروة ، وكان علينا أن نشترى شاة لكل منا ، وهنا حالت الأزمة المالية القاسية التى كنا نقاسي منها دون ذلك ، فاشترك سبعة منا فى عجل بلغ ثمنه ثمانية عشر جنيها ، وتنفسنا الصعداء لهذا الحل السعيد ، فوقف رائدنا يساوم ويجادل محاولا الحصول على تنزيل آخر

ولما لم يوفق سار بنا فى طابور جنائزى وراء العجل المسكين الذى كان ينظر الى الأرض بعناد ، وخبث ، محاولا غرس حوافره فى طينها الممزوج بدماء زملائه الذين سبقوه الى تعس المصير ، ولمح ضعفى نحوه فخيل الى أنه ثبت نظراته على معاتبا وأنا لا أملك من أمرى شيئا ، فقائدنا طالما أصدر أحكاما بالاعدام على بنى البشر ، فما أسهل عليه أن يقود عجلا الى الجلاد ، وزملائى يقبلون أيديهم ظاهرا وباطنا ويهتفون من أعماقهم ، بينما تقطع سكين الجلاد رقبة العجل قائلين : (الحمد لله . الحمد لله . لقد صحت حجتنا) وأنا أقول لنفسى ، وأنا أتأمل بركة الدماء من حولى : (ربى ، أما لهذه المآسى من آخر ؟ وكيف يوضع حد لأقسى عمليةلابادة الثروة الحيوانية وهل تصل هذه اللحوم الى الفقراء حقا ، أم تترك حتى ينتابها العفن ؟) .

وانما نقلت هذه الفقرات كاملة ليتبين القارىء ما يشيع فيها من تبرم وضيق وسخرية بنسك هو من أعظم مناسك الحج ، فقد كان الكاتب ورفاقه فى ضيق شديد حين هموا بشراء النسك ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم : لأن ثمنه فوق ما يحملون من نقود ، فلما وفقوا لشراء عجل بثمانية عشر جنيها تنفسوا الصعداء هكذا ، كأن الكابوس الذى كان يجثم على صدورهم قد زال ، أو لعله قد خف ، لأن ثمن العجل لا يزال بالطبع — على ما يستفاد من عبارات الكاتب يحز فى نفوسهم ، ثم هذا التصوير الدرامى لعملية (الاعدام) التى يساق اليها العجل .

أما سار الكاتب هو ورفاقه فى طابور جنائزى ؟ أما ساقوا

العجل الى الجلاد ؟ أى الى ساحة الاعدام ، أما آلمهم واستنزف دموعهم هذا العجل المسكين ، وهو يقدم رجلا ، ويؤخر أخرى فى طريقه الى مصيره المحتوم ؟

ان الذى يقــرأ هذا التصوير يظن أن هذا الكاتب لم يعش فى بلد تذبح فيه العجول ، وانه رجل نباتى لا يتغذى بشىء من لحوم الحيوان ، والطير ، وأن أبا العلاء المعرى بعث من جديد فى شخص هذا الكاتب ، ولكنه لم يظهر فى كل بلد حل فيه الكاتب وانما ظهر فى (منى) فقط حيث تذبح عجول القــربة الى الله تعالى ، أما المجازر التى تنتشر فى كل البلاد ، والتى رأى الكاتب الكثير منها طبعا ، فالعجول فيها ليست مســاكين ، والنــاس لا يسيرون خلفها فى طوابير جنائزية بل يسوقونها وهم فرحون مستبشرون لأنهم ســيربحون من وراء ذبحها مالا ، ولأنهم سيأكلون منها لحما أحله الله .

وخاتمة المطاف عند الكاتب أن هذه الشعيرة من شــعائر الله مأساة من المآسى ، وهو يسأل الله تعالى ، ويدعوه ، ويناجيه أن يجعل لهــا آخرا ، وأن عملية ابادة الثروة الحيوانية الجائزة التى رآها يجب ــ فى رأيه طبعا ــ أن يوضع لها حد ، كأن الثروة الحيوانية لا تتعرض لأى نوع من أنواع الابادة فى مكان آخــر غير الحرم ، فالناس يحجون من قديم الزمان ، ويذبحون القرابين ولم يظهر فى عام من الأعوام أزمة فى اللحوم حتى فى مكة نفسها بعد موسم الحج ، وأكثر الذبائح تؤكل لحومها ، ويقل منها ما يترك حتى يتعفن ، ولو كان صحيحا أن أكثر هذه الذبائح يتعفن لكان المنطق يقتضى أن يتجه الكاتب ــ كما اتجه غيره ــ الى اقتراح حل لهذه المشكلة ، أما أن يسوق الحديث

هذا المساق الذى تشيع فيه السخرية والتبرم بهذه الشعيرة فهو ما يتنافى مع أبسط مبادىء الاخلاص لله فى أداء ركن عظيم من أركـان الاسـلام •

ان الله تعالى يقول فى سورة الحج : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون • لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » •

وقد فسر بعض العلماء (الشعائر) فى قوله تعالى : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب • لكم فيها منافع الى أجل مسمى ، ثم محلها الى البيت العتيق » ، فسرها بالبدن التى تقدم قرابين شكرا لله تعالى •

والمتأمل فى هذه الآيات يجـد كلمة (التقوى) مقترنة بكل منها ، وهذا دليل على أن امتثال أوامر الله ، وأداء شعائره على أكمل وجه ناشىء من الاخلاص لله ، وخوف التفريط فى جانبه ،

والقضية ليست قضـية منطقية ، وانما هى (من تقوى القلوب) تلك القلوب التى تشعر بجلال الله ، وعظمته ، وتحس بألوهيته ، وربوبيته تتوجه مخلصة الى أداء شعائره ، وتجد من تمام أدائها أن تختار أحسن ما يقدم ، وألا تساوم فيها ، أو تجادل فى ثمنها ، فان الذى يقدم لعزيز عليه هدية لا يغليه الثمن مهما بلغ ، ولا يظل يتردد على حوانيت التجار ليختار منها الأدون والأرخص ولكن ليختار الأعلى والأغلى ، وهذا شىء تدركه القلوب المحبة ، أوضح أدراك وأتمه ، ولن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم •

ومهما قال العلماء من تعليلات مقبولة لهذه المناسك فمرجعها جميعا الى (تقوى القلوب) فى امتثالها لأمر الله ، ذلك أن بالعقل البشرى لا يمكن أن يصل ـ بصفة قاطعة ـ الى سر بعض التكاليف الدينية ، فهو ـ مثلا ـ فى أبرز ركن من أركان الاسلام ، وهو الصلاة يقف حائرا أمام تفسير عدد الركعات وأمام السر فى أن هذا العدد لم يذكر فى القرآن مع ماله من مكانة فى تكاليف الدين .. وهكذا ، فى كثير من مناسك الحج .

وقد أوضح العلماء أسرار الشريعة فى كثير من التكاليف ، وبينوا ، ولا يزالون يبينون ـ فى كل مناسبة ـ حكمة مشروعيتها ، ولكن الشىء الوحيد الذى لا يمكن اغفاله هو احساس القلوب ونقواها ، ومدى تقبلها لأوامر الله ونواهيه .

واذا كانت الأخلاق والفضائل واضحة الأهداف ، فان بعض العبادة لا يظهر فيه غير هدف واحد هو اختيار المؤمنين لمدى امتثالهم لأوامر الله ، وان قيل ما قيل فى سر مشروعيته ، وعلى ذلك فلا وجه لما قاله الكاتب الآخر عن (رمى الجمرات) بأنه أمر غامض ، بل انه يجاوز حدود اللياقة والأدب الدينى حين يشبه هذه الشعائر بالطقوس البوذية ، وقد يصح قوله أن رمى الجمرات مسألة غير مقنعة للكثير لو كان تفسير هذه التكاليف يرجع الى المنطق وحده ويتحكم فيها العقل دون سواه ولكن كما قلت ـ المسألة ترجع الى (تقوى القلوب) أما المنطق وأما التفسير العقلى فهما أمر بعد ذلك ، وما لم تستشعر النفوس الخشية من الله ، وما لم يكن فيها ما يحملها ـ دون اعتراض أو تبرم على امتثال أوامر الله ـ فان منطق العقل لا يغرس الايمان فى النفوس .

وليس معنى هذا أن الدين الاسلامى جاء بتكاليف تتناقض والعقل ، ولكن معناه أن العقل اذا لم يتوصل الى الحكمة الحقيقية لبعض التكاليف ، فلا ينبغى أن يحمل ذلك أحدا على أن يرمى هذه التكاليف بمنافاتها للعقل ، وما دام الدين الاسلامى قد ثبت بكل الطرق المقنعة أنه الدين عند الله وما دامت طريقة ثبوت هذه التكاليف صحيحة لا غبار عليها ، فما على المؤمنين بهذا الدين الا الخضوع والامتثال ، والتأدب حين يتحدثون عن هذه التكاليف .

ثم نعود الى أحدهم ونسأله : لماذا كان ضائق الصدر هو وزملاؤه بثمن ما يذبحون ؟ انه لو كلف نفسه سؤال أحد العلماء وقد كانوا بحمد الله كثيرين فى هذا الموسم — لأفتاه بأن (الدم) لا يجب الا على القادر .

وفى القرآن الكريم آية صريحة تحكم فى بعض هذه الدماء ، وهى قوله تعالى فى سورة البقرة « وأتموا الحج والعمرة لله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » .

وأحب أن ألفت نظر القارىء فى هذه الآية أيضا الى جملة : (واتقوا الله) لأؤكد له أن جميع أعمال الحج مصدرها التقوى ،

والتقوى هى العاصمة من كل شك قد يطوف بالمؤمن فيحيد به عن سواء السبيل فى العمل أو فى الاعتقاد .

ويؤيد ما قلته قول الله تعالى بعد هذه الآيات : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » .

نعم . التقوى هى الباعثة على كل عمل صالح ، وهى أيضا نتيجة لكل عمل صالح ولكن كثرة دورانها فى آيات الحج يدلنا على أن هذه الشعائر يفقهها المتقون ويقـــدرونها حق قدرها ، والتقوى تعصمهم أن يزلوا فى فهمها أو فى أدائها .

بقى أن هذا الكاتب فى لحظة من لحظات الحماس ، والتبرم رمى بعض ما جاءت به السنة الصحيحة بأنه من (الأساطير) ولنتركه يتحدث ، فيقول بعد أن يذكر ما قاسوه من العذاب الشديد فى طواف العمرة ، وأن الناس جميعا كانوا سواسية حتى لكأن هذا اليـــوم يوم الحشر الذى تـــروى الأســـاطير أن الشمس سوف تكون فيه دانية من الرءوس والجو شديد الحرارة حتى ليتمنى الناس أن يقضى بينهم على أى شكل ، فاما الى يمين واما الى يسار ، ونحن لن نتكلف فى الرد عليه أكثر من أن نكتب له الحديث الصحيح الذى يروى هذه القضايا التى رماها حضرته بأنها من الأساطير :

(روى المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ، قال سليم بن عامر فوالله مـــا أدرى ما يعنى بالميل أمسافة الأرض ، أم الميل الذى تكتحل به العين ،

قال : تبكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون الى كعبيه ، ومنهم من يكون الى ركبتيه ، ومنهم من يكون الى حقويه ومنهم من يلجمه العرق الجاما ، قال : وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الى فيه) .

اللفظ فى هذا الحديث للامام (مسلم) وللبخارى حديث فى معناه ، وكتابا البخارى ومسلم هما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى .

فالأحاديث التى فى هذا المعنى صحيحة ، ثابتة ، وليس لمسلم ، أن يقول أن ما تضمنته من القضايا هو من رواية الأساطير .

والله يعصمنا من الخطل والزلل ، ويهدينا الى الفهم الصحيح لأسرار شريعته .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ

فى احدى المجلات الأدبية كتب أحد الكتاب مقالا عنوانه : (مصادر القصص القرآنى) •

وقد خلص الكاتب من حديثه الى أمرين :

الأول : أن التوراة والانجيل لم تكونا من مصادر القصص القرآنى •

الثانى : أن القرآن استغل ما فى وجدان العرب من ثقافة كونتها البيئة والحكايات ، والخرافات ، فصور قصصه تصويراً فنيا رائعا ، واتخذ من شخصيات أسطورية مشهورة شائعة بين العرب ومن عقائد خيالية فى أذهانهم وسيلة لبث المبادىء والأهداف

وتحقيقا لهذا (الكشف) العظيم أنكر الكاتب أن يكون حديث سيدنا يعقوب مع بنيه حين حضره الموت حقيقة وقعت بحذافيرها ، وأنكر الحوار الذى وقع بين سيدنا عيسى والحواريين حين قالوا له : انا مسلمون ، كما أنكر أن ابراهيم

واسماعيل قد بنيا الكعبة ، وتفضل فأنكر وجود الجن ، كما أنكر قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ..

ومع أن الفكرة التى صدر عنها الكاتب امتداد أو تجديد لرأى قديم طلع به على الناس يوما ما طالب من طلاب الجامعة المصرية، ومع أنه رأى مستورد من الخارج ، وقد لقى ما لقى من تصويب ورد الى الجادة منذ عهد غير بعيد ، مع كل هذا رأيت ألا يمر هذا الاجتراء على كتاب الله بدون وقفة مع هذا الكاتب حتى يستبين الطريق ان كان يبحث عن الحق ، أو يخجل من نفسه ، ويحطم قلمه ان كان يقول بغير علم .

غفلـــة الكاتب الكبرى أنه اغتر بمعلوماته الضحلة فى اللغة ، ولم يحمل نفسه أى عناء فى الرجوع الى معجم من المعـــاجم ، أو الى كتـــاب من كتب التفسير ، ولو فعل لانهار الدليل الأول ، والأوحد الذى اعتمد عليه فى انكار ما أنكر .

فســـيدنا يعقوب لم يســـأل بنيه عند موته : ما تعبدون من بعدى ؟ وبنـــوه لم يجيبوه : نعبـــد الهك ، واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مســـلمون ، والكاتب يشك أن يكون هذا الموقف قد حدث بقضه وقضيضه . لماذا ؟ لأن الاسلام لم يكن قد ظهر أيام ابراهيم وأبنائه حتى يوصى به الآباء والأبنـــاء .

وعيسى بن مريم لم يسأل الحواريين : من أنصارى الى الله؟ والحواريون لم يجيبوه : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . وانما وجد القرآن أن هذا النبى قد دارت أحاديثه على ألسنة العرب ، وذكر أمية بن أبى الصلت قصته فى شعره فلم

لا يلجأ القرآن الى وسيلة أدبية رائعة فيحمل عيسى هذا مبادىء الدعوة الاسلامية ؟

واذا سألت الكاتب لماذا كل هذا الخبط والخلط ؟ أجابك بأن الاسلام لم يكن ظهر فى عهد عيسى ، فلا معنى لأن يقول الحواريون : انا مسلمون ، على الحقيقة .

وهكذا فعل الكاتب فى كل ما أنكر .

فلو أن الكاتب عرف عن كتب التفسير : أو عن كتب اللغة : أو حتى عن صغار الطلاب فى الأزهر أن الاسلام له معنى عام : هو الانقياد والخضوع الى الله ، وله معنى خاص : هو هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو أن الكاتب قرأ فى قوله تعالى : (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض) مجرد قراءة .

ولو أنه عرف أن أصول الأديان كلها واحدة ، وأول هذه الأصول الخضوع لله واسلام الوجوه له ، كما يدل عليه قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

ولو أنه — قبل وبعد — اهتدى الى هذه الآية من كتاب الله : (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما).

لو عرف الكاتب ما المراد بكلمة الاسلام فى كل النصوص التى أوردها لاستحيا أن يخط حرفا واحدا من مقاله .

وقد خص الكاتب (الجن) بفيض من علمه الغزير .

فالعربى عاش فى صحراء رهيبة ، فاعتقد أن هناك (جنا) تملأ هذه الصحراء ، لأن الانسان — كما نقل عن المسعودى —

اذا سار في المهامه داخلته الظنون الكاذبة ، والأوهام الفاسدة ولذلك ـ كما قال ـ كان جزء من ثقافـة العرب أدخل في الأساطير ، ومن ذلك الهواتف و (الجن) والقرآن ـ كما قال أيضا ـ قد تحايل مع وجدان العرب فكان اعجازا منه أن يحمل شخصية (جنية) بعض مبادىء الدعوة فتخيل نفرا من (الجن) وأجرى على ألسنتهم حديثا اسلاميا تضمنته سورة الجن .

والنظام من المعتزلة انكر وجود الجن، ومحمد عبده يفسر الجن بالميكروبات الخفية ، ولكن بالرغم من كل ذلك لا يستطيع هؤلاء أن ينكروا أثر سورة الجن ، وقدرتها على جذب أفئدة العرب . هـذا كـلامه .

ولا ينسى الكاتب أن يبرز دليله في هـذا الموضـع أيضا فيذكر ما جاء على لسان الجن في سورتهم (وأنا منا المسلمون) ويكتبها بطريقة توضحها وتميزها عن بقية الكـلام حتى يلفت الأنظار الى أنها السر ـ في موقفه من هؤلاء الجن الذين ألغى وجودهم بجرة قلم .

وليقل النظام ما شاء ، وليفهم الكاتب في كلام الشـيخ محمد عبده ما يوافق هواه فالجن خلق من خلق الله ، وأنوف الجاهلين والمعاندين راغمة .

واذا كان الكاتب لا يحفظ القرآن الكريم ، ولم يكلف نفسـه الرجوع الى المصحف فاني أضع تحت عينيه ـ لا قلبه ـ بعض الآيات الواضحة الصريحة التي لا تحتمل تأويلا ، من ذلك قوله تعالى : « يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصـون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا

شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين[1] » • « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم[2] » صدق الله العظيم •

وكل من يشدو شيئا من العربية يفهم من هذه الآيات وما ماثلها أن الجن موجودون — ان كان يعتقد بأن الله صادق فى حديثه — ومهما أغرب فى تطلب المجازات والاستعارات فلن يسعفه خياله لأن يتوهم أن هذا مجرد تخايل أدبى •

وهل يناديهم القرآن ، ويوبخهم على كفرهم وهل يجيبون بما أجابوا به وهم مجرد خيال ؟ وما وجه الامتنان على النبى بأن الله أمال اليه نفرا من الجن واستمعوا قرآنه ، وآمنوا به اذا كان ذلك مجرد خيال ؟

واذا كان النظام أنكر وجود الجن ، أو هكذا نسب اليه فان آلافا من كبار علماء المسلمين منذ أنزل القرآن الى اليوم لا يداخلهم أى ريب فى وجود الجن ولم يعرف فى القديم أن أحدا أنكر وجودهم غير الزنادقة •

وعلماء المسلمين الفاقهون لكتاب الله ، والعارفون بسنة نبيه لم يختلفوا فى وجودهم ، وانما وقع بينهم بعض الخلاف فى تكليفهم ، قال الامام الرازى فى تفسيره — وهو من أكثر المفسرين تحررا : (أطبق الكل على أن الجن مكلفون ، وأن

---

(١) سورة الأنعام . الآية : ١٢٠ •
(٢) الأحقاف . الآية ٢٩ •

النبى صلى الله عليه وسلم أرسل اليهم والقول بتبعيتهم فى التكليف للانس لا دليل عليه) .

وهدهد سليمان له أيضا مع الكاتب قصة ، خلاصتها أن القرآن استغل معرفة العرب بالهدهد وما حيك حوله من أساطير جاهلية فجعله ينطق بمبادىء اسلامية والدليل على ذلك – عنده – هو الدليل ، ذلك أن الكتاب الذى جاء به الهدهد استفتح – على حد تعبيره – ببسم الله الرحمن الرحيم ، وجاء فيه (ألا تعلوا على وأتونى مسلمين[1]) وهذه البسملة استفتحت بها السور القرآنية التى نزلت بعد سليمان بقرون .

وهو – كعادته – قد جهل أو تجاهل ما جاء فى القرآن الكريم من فضل الله على سليمان وأنه وهبه ملكا لم يهبه لأحد ، ومن ذلك أنه سخر له الشياطين ، وعلمه منطق الطير : (وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ان هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى[2]) .

والله سبحانه يقول فى شأن لقمان : (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله[3]) ولكن الكاتب يؤكد أن لقمان هذا

(١) النمل . الآية ٣١ .
(٢) النمل . الآيتان ١٦ ، ١٧ .
(٣) سورة لقمان . من الآية ١٢ .

لا وجود له ، بل هو شخصية اسطورية حاك العرب حولها الحكايات : فاستغل القرآن ذلك وأنطقه بالوصايا والحكم ، فالله سبحانه قد أعطى الحكمة لشخص اسطورى — كما يزعم الكاتب — •

ولعل الخطب فى لقمان أهون من الخطب فى ابراهيم واسماعيل فالكاتب يرى أن الحنفاء من العرب أشاعوا فكرتهم عن بناء ابراهيم واسماعيل الكعبة ، فوجد القرآن فى هذا موقفا خصبا — هكذا موقفا خصبا — فأخذ تلك الفكرة ، وكسب أنصارها الى صفه ثم أوحى اليهم بمبادىء دعوته فقال : « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم •• ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم[1] »

ولنرجع بنا التاريخ الى أوائل هذا القرن حين كتب كاتب أن للقرآن أن يحدثنا عن ابراهيم وعن اسماعيل ، ولكن التاريخ لا يعترف بهما — أو كما قال — •

يا هذا • ان آيات القرآن واضحات ، لا لبس فيها ولا غموض ، وانك وكثير من أمثالك ترهبون أن تقولوا كلمة واحدة فى أى كتاب آخر من الكتب التى أنزل الله أصولها ، فما خطب القرآن عندكم يا هؤلاء !! شيئا من الحياة •

ولا أختم هذا الحديث دون أن أشير الى توبيخ وجهه الكاتب الى مشركى مكة حيث اقتصروا على وصف القرآن

---

(1) سورة البقرة • الآيات ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ •

بأنه أساطير الأولين ، فقد كانوا قصيرى النظر حين اقتصروا على ذلك . ولو أنه كان فى مكة ابان الدعوة لأرشد صناديد قريش الى الا يقتصروا على هذا الوصف ، والى أن يتنبهوا — مع ذلك — الى تحايل القرآن واغتنامه المواقف الخصبة ، واستغلاله للشخصيات الأسطورية ، والى أنه فى سورة الكهف فى قصة موسى والعبد الصالح (يدق) — وهذه كلمته — على نغمة خاصـــة .

ولكن من الانصاف للكاتب أنه فى كل وقفة من وقفاته لم يفته ان يعتبر صنيع القرآن هذا لونا من (الاعجاز) ، وكما يقول : الاعجاز الفنى الخالد ، والاعجاز الناشىء من العلاقة الوشيجة بين الكلمة والمتلقى .

ولا غرو ، أليس الله أديبا بارعا يحث على المواقف الخصبة !؟

التجديد الديني

لا يكاد يمر يوم دون أن يسجل الراصد للتيارات الفكرية في أيامنا هذه تيارا منحرفا في التفكير الديني •

فقد كثرت وسائل الاعلام ، واتسع مجالها ، من صحف ومجلات ، واذاعة مسموعة وأخرى مشاهدة منظورة ، و (سينما) ومسرح ، وأندية ثقافية •• الى أنماط أخرى تتيح للناس ان يعبروا عن آرائهم •

وقد يكون من الخير أن يتذاكر الناس شئون دينهم ، وأن يعبر كل ذي رأى عن رأيه ، فان الحقيقة بنت البحث — كما يقال — وأن المذاكرة تعدى على العلم — كما يقال أيضا — •

ولكن الذي لا يبشر بخير ، أن يقول كل من أراد ما أراد دون أن يرجع الى فقه في موضوعه ، ودون أن يتعمق الدراسة ليمحص رأيه ، وأن يقتحم الكاتب كل موضوع دون أن يكون من أهله ، فان أضرار هذا التقحم كثيرة ، وأولها يعود على الكاتب نفسه ، لأنه يظهره في ثوب الجاهل المتعالم ، أو الأجنبي المتطفل •

ولعلك أيها القارىء لاحظت كما لاحظت أن كثيرين ممن يتكلمون في الاصلاح الديني تنقصهم الدراسة الواعية ،

ويتملكهم الغرور المتعالى ، وتسيطر على أقلامهم وعقولهم (اللامبالاة) فيهرفون بما لا يعرفون ، ويعتسفون فى مجاهل ليست لهم أية خبرة بشعابها ووديانها ، وقديما قال العرب : قتل أرضا عالمها وقتلت أرض جاهلها •

هل سمعت (حلاق القرية) فى ساحة الحى حيث يجلس متعاليا متطاولا وحوله أهله وعشيرته متحلقون ، يحاضر فى أدق شئون الطب ، ويشخص أكثر الأمراض تعقيدا ، ويصف لها من الأدوية ما كانت تصفه العجائز منذ قرون ؟

اذا كنت رأيت هذا المشهد الرائع العجيب ، أو سمعت به ، فاعلم أنه مثل واضح صادق لبعض أصحابنا الذين يحاضرون أو يكتبون ، أو (يذيعون) آراء يزعمون أنها لتجديد الدين ، أو لتفسيره ، أو لحل مشاكل الناس من الناحية الدينية ، وهم فيما يبدو لم يقرءوا كتابا واحدا فى أصول التشريع ، أو على الأقل لم يفهموا هذا الكتاب اذا كانت كبرياؤهم سمحت لهم فحاولوا أن يمروا بصفحاته مرور العجالى المجهدين •

ولعل أخطر هذه الآراء تلك التى يذيعها اناس يملكون حق النشر والطى فهم فى الوقت الذى يعلنون فيه أنهم يقدسون حرية الرأى ، ويقدرون قيمة الكلمة لا تسعفهم الشجاعة النفسية أن ينشروا كلمة واحدة تعاسرهم الحساب ، أو تبين لهم مدى الخطأ الذى يقعون فيه ، فى الوقت الذى يذيعون فيه كل كلمة منحرفة ما دامت تسير فى الطريق الذى يسيرون فيه ، وتهدف الى الغاية التى يقصدونها •

ولسنا نطلب من الدولة أن تضرب على أيدى هؤلاء ، ولا من المسئولين الحقيقيين عن أجهزة الاعلام أن يطهروها ممن يقولون بغير علم ، ويجترئون على الحقائق بغير اكتراث ،

ويعتدون على مقدساتنا لغير صالح أمتنا ، لسنا نطلب شيئا من ذلك ، ولكنا نطلب منهم أن تكون لهم رقابة على سير هذه الأجهزة حتى يدركوا أن اتجاهات خاصة تسيطر على بعضها ، ولا أثر لاتجاهات أخرى تحد من غلواء تلك الاتجاهات ، وتقلل من خطرها على عقائد الناس ، وعلى أخلاقهم .

لقد كان منذ سنوات كاتب كان حواريوه يصفونه بأنه من أعمدة الفكر فى هذا العصر ، وكان يكتب (يومياته) فى صحيفة يومية ، وكثيرا ما تناول قضايا دينية وحشد لها من المنحرفين وطلاب الشهرة من يؤيد آراءه ويحطب فى حباله ، وكان أكثر ما يتبجح به حرية الرأى ، ولست أذكر أنه سمح مرة واحدة لكلمة حق أن تنشر فى (يومياتـــه) على الرغم من الكلمات الجادة ، الواضحة الحجة ، البينة المحجة التى أرسلت اليه .

* * *

ذكرت كل ذلك حين رأيتنى فى الأيام الأخيرة أطلع كل يوم على عجيبة فى مهاجمة الدين ، أو فى تحريف نصوصه ، أو فى تفسير قواعده وأصوله ، على طريقة (حلاق قريتنا) العالم بالطب والجراحة ، وهو لا يعرف الا الحجامة والكى بالنار ونزع الأضراس (بكماشته العتيدة) .

وآخر ما قرأت من هذا مقالات فى (التجديد الدينى) لأحد الكتاب المعروفين ، آثر بها مجلة معينة .

وعلى الرغم من معرفتى القديمة لهذا الكاتب فقد تابعت قراءة هذه المقالات على أمل أن أجد فيها جديدا ينفع أمتنا ، وينفع المسلمين فى وقتهم الحاضر ، ولكن وجدتنى بعد أن أتم الكاتب مقالاته أذكر هذه القصة القصيرة :

لقى رجل صديقا له فسأله : الحسن والحسين بنتا معاوية ابن أبى طالب فقال له صاحبه : والله ، ما أدرى أى أخطائك أصلح ؟ وقد مست هذه المقالات أصولا وفروعا فى التشريع الاسلامى مسا عنيفا •

وسأترك للمتعمقين فى دراسة الفقه والأصـــول الرد على ما أثاره من مسائل جزئية ، وأراجعه فى القضايا الكبرى التى أثارها ، والتى أظن انها لا تخفى على من له المام ما بالتشريع الاسلامى ، وســـيتبين من هـــذه المراجعة أن الكاتب لم يكن يعتقد ما يقول •

* * *

١ ـــ ابتدأ الكاتب فوضع (أصلا) ليبنى عليه كل ما أتى به بعد ، ذلك الأصــل هو أن فى التشريعات الدينية عناصر ثابتـــة خالدة لا تتأثر بزمان أو بمكان وعنـــاصر أخرى غير ثابتـــة •

ومثل للأولى بالمعتقـــدات الدينية الخاصـــة بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهى التى وصى الله بها جميع الأنبياء ـــ كما ورد فى هذه الآية التى ساقها الكاتب فى هذا الموضع ـــ : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه[1] » • واعتمد ـــ هنا ـــ على تفسير الرازى لهذه الآية ، وخلص الى العناصر غير الثابتة ورأى أنها (التكاليف والأحكام) فهى ـــ كما يقول ـــ خاضعة للتغيير والتبديل •

---

(١) سورة الشورى من الآية ١٣ •

وهكذا فى غفلة من العقل ، وذهول من المنطق ، وفى جرأة على الحق حكم الكاتب على (التكاليف والأحكام) فى شريعتنا الاسلامية الثابتة الخالدة بأنها غير ثابتة ، ولا خالدة .

فالصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، ينالها التغيير والتبديل أصولا وفروعا فى رأى الكاتب .

واذا كانت الصلاة ــ مثلا ــ تختلف فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عن شريعة ابراهيم ، ونوح ، فينبغى ــ كما يزعم الكاتب ــ أن تختلف فى القرن العشرين عنها فى حياة الرسول ، وهكذا يقال فى كل التكاليف .

ولا أعتقد أن هذا جهل من الكاتب فهذا لا يكاد يجهل الحق فيه مسلم ولا غير مسلم ، فبقى أن يرجع القارىء الى حدسه وتخمينه ليعرف ما الذى حمل كاتبا له صيته أن يثبت مثل هذا الكلام .

ونمضى مع الكاتب فنراه يصر على هذا الذى ارتآه ، ولكنه بدأ يتراجع شيئا فشيئا ، فيرى أن نصوص الشرائع السماوية نصوص مقدسة ولا يمكن أن تكون محل تغيير ، ولكنه فى الوقت نفسه يرى أن آيات الأحكام أو بعضها يمكن أن تتأثر بفعل الزمن ، هكذا (آيات) فهو لم يقل : الأحكام التى استنبطها الفقهاء من بعض الآيات ، وانما قال (الآيات) كأنه يرى أن بعض النصوص المقدسة يمكن أن يتأثر بفعل الزمن .

ويضرب فى عمياء مظلمة ، فى خبط وخلط ، راجعا مرة الى ابن خلدون وأخرى الى ابن قيم الجوزية ، وثالث الى بعض الآيات ليصل أخيرا فى اعياء واجهاد الى أحد الفقهاء ذلك الذى يرى أن مخالفة الأحكام المأخوذة من النصوص الدينية تجوز

الضرورة وذلك اذا زالت علة الحكم الشرعي ، أو تغير العرف والعادة ، ويعلن هنا عن قاعدة ذهبية رآها في بعض الكتب دون أن يتعمق في دراستها ، وينسبها الى (الفقهاء المسلمين) هكذا بصيغة التعميم ، وهي : « ان الحكم الشرعي المبني على علة يدور مع علته وجودا وعدما » •

وأنا أترك شرح هذه القاعدة ، وبيان ما فيها لمن يناقشونه من فقهائنا أو أحيله على أي كتاب من كتب أصول الفقه ليتفهم هذه القاعدة جيداً •

ويذكر هنا — مثلا — وهو — كما يقول — تعطيل سيدنا عمر ابن الخطاب لبعض النصوص القرآنية الخاصة بالمؤلفة قلوبهم وأحيله على أحد الشيوخ ليشرح له صنيع عمر ، ، فان مثل هذا الكاتب لا يحتاج فقط الى كتاب يقرأ فيه ، وانما يحتاج الى معلم يرشده •

ومن هذا القبيل ما نسبه الى الامام أبي يوسف في جرأة غريبة ، وتعميم عجيب من جواز ترك النص واتباع العادة •

٢ — وينسب الى الفقهاء انهم يقولون ان الاجماع انما يكون حين لا يوجد نص من كتاب ، أو سنة صحيحة ، ومعنى ذلك — عنده — أن الحكم الشرعي الذي يجيء عن طريق الاجماع يكون حكما شرعيا مستحدثا •

وهذه غلطة سببها أن الكاتب لم يحاول أن يطلع حتى ولا على (تعريف) الاجماع ، ويستطرد الكاتب فيبني على أصله هذا أن طبيعة الاجماع هي بعينها طبيعة التشريعات المدنية ، أي أنها وضع القوانين والقواعد المنظمة للعلاقات بين الناس ، وان كانت القوانين المدنية — فيما يرى — أدق ، وأكمل تنظيما •

وما دام سبيل الاجماع ، والتشريعات المدنية واحدا فلماذا لا نعتبر التشريعات المدنية الحديثة الخاصة بالمعاملات ، والصادرة عن الهيئات التشريعية الحديثة من قبيل الاجماع ، انه يعتبرها كذلك ، ولا عبرة فى هذا الموقف بمخالفتها لاجماع سابق ، ولو كان هذا الاجماع اجماعا للصحابة — رضى الله عنهم — كما قال .

ونقول له :

أولا : اعلم — وفقك الله — أن الاجماع لابد أن يعتمد على نص ، من كتاب أو سنة (فاذا لم يكن فى نازلة كتاب ولا سنة وأتى فيها السلف بفتوى ، ولم يعلم عن أحد منهم خلاف فى تلك الفتوى ، فان جمهور الفقهاء يرى ذلك حجة فى الدين وذلك أن اجتماعهم لا يكون عن رأى ، اذ الرأى اذا كان تفرق فيه .

وذلك — فى الحقيقة — راجع الى العمل بالسنة ، واعتبار ما كان من عدم الخلاف دليلا على وجود سنة رجعت اليها تلك الفتوى ، وهذا قليل الوجود جدا ، فيما اجتهد فيه العلماء)[1].

وأظن أن هذا الكلام واضح لايحتاج الى شرح ، فالاجماع ليس عن رأى محض ، وانما هو مستمد من النصوص .

والاتفاق على فتوى دون أن يعلم مصدرها من الكتاب والسنة قليل جدا .

ولعل من هذا القبيل تقسيم الكاتب الأحكام الشرعية الى ما كان عن آية قرآنية ، أو سنة متواترة ، وما كان عن رأى الفقهاء ، كأن الفقهاء يقولون من عند أنفسهم دون أن يكون

---

(1) تاريخ التشريع للشيخ الخضرى ص ٢٠٦ ط اولى .

لآرائهم مستند من كتاب أو سنة، ووضع كلمة (متواترة) هنا بجانب السنة يهدف الى غاية منكرة ، اذ من المعلوم أن المتواتر من الأحاديث قليل ، وأن الأحكام الشرعية المأخوذة عن الأحاديث غير المتواترة كثيرة ، وكأن الكاتب يريد الا يثق فى هذه الأحكام ، وهو — فى هذا — يجهل لباب علم الأصول .

ونقول له ثانيا : ان الاجماع فى كل مسألة لا يعتبر الا اذا كان من (المتخصصين) فى هذا العلم ، وليست أحكام الدين بأقل حرمة من قضايا الهندسة والطب والجغرافيا ، فاذا كنا لا نقبل من أعلام الهندسة أن يفتونا فى أدق الشئون الطبية ولا فى أوضحها فكيف نقبل من رجال لم يتخصصوا فى الدراسات الدينية أن يفتونا فى شئون ديننا ، وأن نعتبر اجماعهم ملزما لنا ، بل ناسخا لاجماع الصحابة .

كيف نقبل من لجنة فيها كوهين ومرقص والمستشرق فلان من أعداء الاسلام أن يكون حكمهم ملزما لنا فى شريعتنا بل معطلا للحكم الذى أجمع عليه صحابة رسول الله .

انني مرة أخرى أجهل الغاية الحقيقية التى يجرى الكاتب خلفها ليدركها بمثل هذا الهراء .

٣ — وقريب من الاجماع اجتهاد المجتهدين ، والكاتب يرى فيه ما رآه فى الاجماع أنه يرى أن الاجتهاد منفصل عن الكتاب والسنة ، ويجعل هذا الاجتهاد قسيما لهما ، فمصادر التشريع عنده ثلاثة : الكتاب ، والسنة ، والاجتهاد — ونسى هنا الاجماع — ثم ان أقوال المجتهدين غير ملزمة لنا ، لأن لنا من الحق مثل مالهم .

ولو أن الكاتب مال على طالب أزهرى صغير ، وسأله أن يعرف له الاجتهاد لقال : له : انه استفادة المكلف الحكم من

كلام الوحى هكذا (كلام الوحى) • ولو ظفر بطالب آخر لعرف له الاجتهاد تعريفا آخر فقال له : هو بذل أقصى الوسع لتحصيل حكم شرعى عملى بطريق الاستنباط من الأدلة الشرعية •

وربما أسعده الحظ فلقى عالما أزهريا يقول له ، ان الاجتهاد هو الفقه ، وان الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية ، واذن فليست أقوال الوحى هى الأحكام وانما هى (أدلة الأحكام) والعالم اذا وجه همه ، وبذل جهده ، واستخرج حكما من هذه الأدلة سمى (مجتهدا) •

فالاجتهاد — أيها السيد الجليل — ليس منفصلا عن الكتاب والسنة ، وانما هو معتمد عليهما ، آخذ منهما •

ويخبط الكاتب — كعادته — فى موضوع الاجتهاد ، فيرى أن شروطه معجزة وأنه الآن أيسر منه فيما مضى للتقدم العلمى والرقى الفكرى الذين يساعدان على المضى فى الاجتهاد دون خشية من الانحراف أو الخطأ ولتعدد الدراسات الذى يجعل ثقافة من يريد أن يجتهد أدق وأعمق من ثقافات السابقين •

ولا غرو ، فما دام يريد أن يقول فى الدين كل (من هب) وكل (من دب) ، فشروط الاجتهاد معجزة ، ومادام يرى أن من حق الفلاح فى الحقل ، والصانع فى المصنع ، والصحفى فى مكتبه ، ما دام يرى أن من حق كل هؤلاء أن يجتهدوا : فلا بأس ، لأنهم أعمق ثقافة من السابقين ، ولا علينا أن يجتهد فى الدين من لا يحفظ آية من كتاب الله ، ولا من لا يعرف معنى السنة • ولا من لم يدرس شيئا فى سيرة

الصـــحابة والتابعين ، والأئمة المجتهدين ، لا علينا من ذلك ما دام قد قرأ (كارل ماركس) وتعاليم (لينين) ووجودية (سارتر) أليس هؤلاء أدق ، وأعمق ثقافة من السابقين ؟ !

٤ ــ ويبدو أن الكاتب (عجن ما عجن) ليصل الى الرأى فى المعاملات الحديثة فهو يطالعنا ــ أولا ــ بأن السنة العملية كانت تدور أكثر ما تدور حول العبادات ، أما المعاملات فكانت عبارة الرسول عليه السلام : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

لقد ذكرنى هذا الكلام بموقف أبى حنيفة رضى الله عنه من ذلك الرجل الذى احترمه ، ثم تبين له .

قالوا : ان أبا حنيفة كان يدرس فى المسجد ، وبينما هو جالس دخل رجل له هيئة وشارة حســنة ، وكان أبو حنيفة مادا رجله ــ لعل ذلك من وجع ــ فلما رأى الرجل ضــمها ، ثم قال أبو حنيفة : اذا أدبر النهار من هنا وأقبل الليل من هنا أفطر الصائم . فقال الرجل : يا هذا ، اذا أدبر النهار من هنا ، وأقبل الليل من هنا ولا تزال الشمس طالعة ، فماذا نصنع ، فقال الامام : اذن ، أبو حنيفة يمد رجله .

هل يصـــدق أحد لو لم يكن امضـــاء الكاتب مذيلا لمقاله أن مثله يقول هذا الكلام .

المعاملات ، ليست فى كتاب ، ولا سنة ، المعاملات فصــل فيها النبى بقوله : أنتم أعلم بشئون دنياكم ، ومن عجب أن الكاتب ذكر أن كلام النبى هذا جاء فى حادثة أبر النخل .

فأولا : من المعاملات البيوع والرهن والحجر ، والشــفعة والوكالة والحوالة والكفالة وكثير غير هذه ، ولو قرأ الكاتب كتابا صغيرا فى الفقه الاسلامى لوجد فى أول كل باب من هذه الأبواب : دليل مشروعيته الكتاب والسنة .

وثانيـــا : من قـــال ، ومن يعقـــل ان (أبـــر النخـــل) من المعـــاملات ؟

ان الكاتب فى سبيل هدفه يغفل عن أوضـــح الأمور ، وأبينها، وهذا ليس شأن من يدعو الى (التجديد الدينى) الا اذا كان الدين عندنا أهون من كلمة تكتب فى صحيفة •

ومن هذا الخبط ــ أيضـــا ــ قول الكاتب ان الرجـــوع الى السنة النظرية وبخاصة فى باب المعاملات كان قليلا ، يوم أن كانت تجمع وتدون ، كأن الفقهاء لم يكونوا يرجعون الى هذه السنة الا حين يجدونها فى كتاب •

ومرة أخرى أقول للكاتب ارجع الى كتاب من كتب الفقه لتعرف ان السنة كانت مصـــدرا مهما لكل التشريعات ومنها المعاملات •

ويخطو الكاتب خطوة أخرى فى شأن المعاملات فيرى : أن ما وافق مصلحتنا قلنا به ، وما لم يوافق أعرضنا عنه •

فالأســـاس فى ميدان المعاملات ــ كما يقول ــ هو رعاية حاجات الناس ، والمصلحة العامة •

وهذا كلام سبقه به أحد الكتاب ، ورددنا عليه فى حينه ، ونريد أن نوجز له القول هنـــا • فنقول : ان معنى هذا أن المصلحة هى التى توجه النصـــوص وتفسر الآيات ، وليس الشرع هو الذى ينظم هذه المصلحة ، وبين ما هو مصلحة فى الحقيقة ، وما ليس مصـــلحة ، اننا حين نخضـــع التشريع للمصلحة ، نختلف اختلافا كبيرا لأن بعض ما يراه الرأسماليون مصلحة لا يراه الشيوعيون •• وهكذا •

ثم يخطو الخطوة الأخيرة ــ ولعلها الهدف الأصيل ــ فيرى أن جميع مشروعاتنا المستحدثة لا تحتاج الى فتوى من رجال

الدين اذ من المسلم به أن الكتاب والسنة لم يتعرضـا لها ، لأنها لم تكن موجودة •

ما شاء الله • هل يعتقد الكاتب هذا الكلام حقا ؟ ألا يعرف الكاتب ان كثـيرا من مشروعاتنـا كان فى كل زمان ومـكان ؟ ألا يعرف الكاتب أن فى التشريع الاسلامى قواعد كلية ، يرجع اليها للحكم فى المسائل الجزئية ؟

ان الكاتب نفسه يعمى فيذكر أن من القواعد أن الأصل فى الأشياء الاباحة وما دامت معاملاتنا الحديثة لم تكن موجودة فلم يرد فيها نص بالتحريم فهى مباحة •

أليس ذلك رجوع الى قاعدة من قواعد التشريع ؟ يؤكدها من ينكر أن يكون للتشريع الاسلامى رأى فى هذه المستحدثات ، وليس بين الاثبات والانكار فاصـل يجعله ينسى على أن القياس أصل من أصول الأحكام ، ومعناه أن تقاس الجزئية المستحدثة على جزئية قديمة تشبهها •

٥ ــ ويلح الكاتب فى رأى أبى يوسف فيما يتعلق بحكم العادة ، فينسب اليه مرة أخرى القول بـأن الحكم الشرعى المبنى على العـادة يعطل اذا تغيرت العادة ولا ضـير من مخالفة النصوص •

وأنا لا أناقش الكاتب فى مدى صحة نسبة هذا القول الى الامام أبى يوسف مع ترجيحى أنه لا يكـاد يصـدق أن عالمـا من علماء المسلمين يعطل الشريعة لحكم العادة ولكنى أناقشه فى المثال الذى أراد أن يطبق الحكم فيه بناء على هذا القول :

قال الكاتب : انه ليس من حقنـا اليوم أن نقتـل الجندى المقاتل ، أو نسترقه ، وليس من حقنا أن نسبى النساء والأطفال ونسترقهم وليس للجندى نصيب فى الغنـائم وليذهب قول

النبى صـــلى الله عليه وسلم : (من قتل قتيلا فله سلبه) ؛ أدراج الرياح •

لماذا ، لأن قوانين الحرب قد تغيرت كما تغيرت العـــادات ، وكل ذلك قد عطل نصوص الشرع الشريف الخاصـــة بالغنائم ؛ ولا ضير فى ذلك ، ولا ضرر •

وهذا ـــ أولا ـــ اجتهاد من الكاتب ، وهو ليس أهلا لهذا الاجتهاد ، لأنه فيما أعرف ، وفيما يبدو من مقالاته لم يدرس أية دراسة جادة كتب التشريع الاسلامى •

وثانيا ـــ أن الحكم على شرعنا بالقوانين الدولية رفع لهذه القوانين فوق نصوص الشرع ، ولا يرضى بذلك مسلم •

وثالثا ـــ على الكاتب أن يقرأ (باب الجهاد والسير) فى كتب الفقه ليعرف أنه لا ضير فى أن نسترق الجندى المقاتل لنا اذ توفرت الشروط التى كان يسترق بها الجندى فى حروب الاسلام ، وان أخذ القاتل سلب القتيـــل لا يمنعـــه مانع ، ولا يعترض على هذا بأنا لا نستطيع اليوم أن نتبين من قتل القتيل فهذه ليست صورة مستحدثة ، وانما كانت فى العهود الاسلامية الأولى ، وكان لها حكمها الاسلامى •

ورابعا ـــ من قال ان بلاد الاســـلام تطبق فيها هذه الأحكام حتى ترضى أولا ترضى •

ان الكاتب يستخدم الأســـاليب الخطابية فى أدق الشئون الدينية ، انه يريد أن يعطل نصـــوص الشرع الشريف كما يقول لأننا لا نسمح بتطبيق هذه النصوص علينا •

أبهذه الســـهولة ـــ يا صـــاحب الفن القصصى ـــ تقضى على آيات بينات محكمات فى كتابنا المقدس ؟ •

أهذا هو التجديد الدينى ؟

لقد هزلت حتى بدا من هزالهـا •

كلاها ، وحتى سـامها كل مفلس

٦ ــ وأخيرا ــ وقد قلت انى لا أريد أن أراجع الكاتب فى شيء من التفاصيل ــ أحب أن أقف معه وقفة قصـيرة فى دعوته التى ختم بها مقالاته •

لقد توجه الى رجال الدين ، والى علماء الأزهر الشريف أن يطبقوا أحكام الشرع الشريف فيعلنوا تنازلهم عن أراضيهم التى تحت أيديهم ، لأن مصر فتحت عنوة ، والأرض المفتوحة عنوة ملك للدولة ــ كما تفيد نصوص الشرع فيما يرى الكاتب •

ولست أريد أن أبين (تفاهة) هذا الكلام ، وما يحمل من سوء قصد وانما أريد أن أوجه نظره الى أمور :

الأول : أنه فى كل ما سبق من مقالاته يرى أن المعتبر هو نص القرآن والحديث المتواتر ، وما عدا ذلك فأقوال فقهاء ، لنا أن نأخذ بها ولنا أن نلغيها •

فأين وجد فى القـرآن ، أو فى الحـديث المتواتر أن الأرض التى فتحت عنوة ملك للدولة ؟

الثانى : هل يعرف الكاتب الرقعة التى كانت مزروعة فى مصر أيام فتح العرب لها ؟

الثالث : أن أرض مصر مملوكة لأهلهـا فللامام اذا فتح بلدا عنوة أن يقر أهلها عليهـا ، وقد أقر عمر ــ رضى الله عنه ــ أهل مصر على ما يملكون فثبت لهم التصرف فيها بكل أنـواعه •

ن بعض العارفين يقدر هذه الرقعة بعشر المساحة المزروعة الآن أما التسعة الأعشـــار الباقية فهى ممـــا أصـــلحها الناس أو أصلحتها الدولة وباعتها للناس ، والنص الشرعى يقـــول : (من أحيا مواتا فهو له) •

أليس قول الكاتب هذا مما يؤكد له أن من الضرورى لمن يكتب فى مسألة أن يحيط بجميع ما قيل فيها ؟ والا كان قوله ردا عليه ، ودليلا على أنه يقول فيما لا يعرف •

ان رجال الدين ، وعلماء الأزهر الشريف ــ أيها السيد ــ كانوا وما يزالون المثل الأعلى للباذلين فى سبيل الوطن ، وفى سبيل مصلحة الأمة ، وفى مقدمة الداعين الى أن يأخـــذ الفقير حقه ، ولا نعرف فيهم من اســـتغل مركزه أو عمله فى سبيل كسب مادى ، والاحتيال على هـــذا الكسب بالمشروع وغير المشروع من الأعمال والأقوال •

إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

— ١ —

حين كنت فى هيئة تحرير مجلة الأزهر عرض علينا بحث عنوانه (دين الله واحد) وقد آثر كاتبه ان يقدمه غفلا من التوقيع .

ونظر فيه أحد الزملاء فما كاد ينتهى من قراءة المقدمة ، حتى القاه أمام رئيس التحرير ، وقال : ان هذا البحث كتبه أحد المبشرين .

ولكن قارىء هذا المقال راق له أن يتم قراءة البحـث ، حتى اذا رفض نشره كانت فى يده (حيثيـات الحكم) ، ثم انه رغب أن يعـرف ما يقوله هؤلاء الذين يبشرون بالمسـيحية من غير أهلها ، فقد كان على يقين أنه لم يكتبه رجل من رجال الدين المسيحى ، وانما كتبه أحد الكتاب المسلمين .

وفعلا قرأت البحث بامعان ، وكتبت على هوامش النسخة تعليقات تبين ما فيه من أخطاء علمية ، وما يتضمنه من انحراف فى العقيـدة .

وكنت أظن أن صاحب هذا البحث — اذا كان مؤمنا بعقله ودينه — لن ينشره حتى يصـلح من أخطائه ، ثم علمت أن

البحث قد نشر ، وتبين أن مؤلفه ليس مبشرا وانما هو رجل مسلم يلبس العمامة ، ويرتدى الجبة والقفطان .

وقد اعتزمت أن التزم الصمت حيال هذا البحث ، فربما كان الجدل حوله أحد الأهداف التى يقصد اليها المؤلف من نشره . وسكت .

غير أن أحد الكتاب الغيورين كتب منذ أسابيع فصلا فى مجلة الرسالة أبان فيه عما رآه فى الكتاب من انحراف ، ومع حرص الكاتب على التقصى : ومقارعة الحجة بالحجة فاتته أشياء ذات بال ، فرأيت أن الواجب يقتضينى — وقد علم بعض القراء شأن هذا الكتاب — ان أكتب هذه الكلمات ، وأعتقد أن فيها فائدة للمؤلف — وان لم ينتفع بما كتبت على هوامش البحث من قبل — وفائدة لأولئك الذين يشجعونه على مثل هذا البحث ، فان فى البحث تغريرا بهم فى عقيدتهم ، وفى هذا البيان ارشاد الى الطريق القويم الذى يتحتم عليهم أن يسلكوه ، حتى يكونوا عند الله من الناجين .

يقوم الكتاب على فكرة واحدة ، أعلنها المؤلف فى صراحة ، ثم راح يدور حولها فى كل فصول الكتاب .

قال المؤلف : (فكل من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويعمل صالحا فهو ناج بفضل الله — ان شاء الله — ذلك بأن هذه الصفات الثلاث هى أركان الدين الأساسية على لسان كل رسول ، فمن اتبع أحكامها ، وأقام أصولها ، من أى دين كان — فاز برضوان الله ، ومن أخل بشىء منها ، واتبع هواه ،

فأمره اذن الى الله ان شــاء رحمه ، وأن شاء عذبه ، وهو ــ سبحانه ــ غفور رحيم لا يسأل عما يفعل) .

ومعنى هذه العبارة ان الايمان بالرسل ، والكتب المنزلة ، ليس ركنا من أركان الدين ، لأنه حصر الأركان فى تلك الثلاثة : الأيمان بالله ، والايمان باليوم الآخر والعمل الصالح .

والمؤلف قد جعل النجاة ــ أولا ــ بفضل الله ان شاء ، ثم جعلها ــ ثانيا ــ غير متوقفة على شىء غير اتباع أحكام هذه الأركان واقامة أصــولها ، فقــد حــكم بأن مثل هــذا فائز برضوان الله ــ هكذا من غير تقييد بشىء .

والمســلمون يؤمنون بالله ، وبرســله جميعا ، وبكل كتبه المنزلة ، وباليوم الآخر فهم غير محتاجين لهذا القانون الذى وضعه المؤلف . واليهود غير منتفعين به أيضا لان المؤلف نبذهم بقوله فى ص ٧٦ (ولا يفوتنا أن نبين أن كــلامنا عن اليهــود ــ هنا ــ ليس على اطلاقه ، وانما نقصد به اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام بحق ، وآمنوا بتــوراته الصحيحة التى أنزلها الله ايمانا صــحيحا ، وأخذوا أنفســهم بآدابهــا وتعاليمها أخذا صادقا) .

وقبل أن نناقش المؤلف فى دعاواه التى أوردها فى الكتاب نحب أن ننبه الى حقيقتين اثنتين فى هــذه الكلمة التى نقلناها فى أول هذه الكلمة :

الحقيقــة الأولى : كيف يتم الايمــان بالله دون أن يؤمن الانسان بكل ما يصدر عنه ؟ .

والحقيقة الثانية : يقول : ومن أخل بشيء منها فأمره الى الله ان شاء رحمه .. الخ ومن هذه الثلاث (الايمان بالله) فمعنى كلامه أن من أخل بالايمان بالله ، أى كفر به ــ سبحانه ــ فأمره الى الله ان شاء رحمه ، وان شاء عذبه ، وهذا مخالف لنص محكم صريح من نصوص القــرآن ، وهو قوله تعالى : « **ان الله لا يغفر أن يشرك به**(١) ». والمؤلف يعرف حكم من ينكر نصا صريحا من نصوص القرآن الكريم .

ثم نأخذ فى مناقشــة المؤلف فى كل ما جانب فيه الحق والصواب :

فرق المؤلف بين العبادات والمعاملات ، فجعل الأولى من وظيفة الرسل ، أما القول فى الثانية فلا شأن للرسل به ــ كما زعم ــ ومن ثم فلا تتعلق بها التشريعــات التى جاءت بها الأديان وفى ذلك يقول : (أما أحكام الحياة ونظمها ــ وهو المعبر عنه (بالمعاملات) ــ فانه يتغير بتغير الزمان ، وأحوال النــاس وطبائعهم وطرائق معايشــهم ، كما تتغير القوانين الوضعية بين الفينة والفينة ... وهــذا الأمر قد تركــه الله للناس ــ كما قال استاذنا الامام محمد عبده ــ وفى ذلك يقول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنتم أعلم بأمور دنياكم) .

ولا أدرى ما الدافع القوى الذى يدفع بعض من يريدون أن يقحموا أنفسهم فى الحديث عن التشريعات الاسلامية الى

---

(١) ذكر هذا الجزء فى آيتين كريمتين من سورة النساء ٤٨، ١١٦.

أن يقولوا . ويكرروا القول أن (المعاملات) لا تدخل فى نطاق التشريع — وهم بالطبع — يريدون التشريع الاسلامى ؟

ان (المعاملات) كلمة اصطلاحية ، وضعها فقهاء المسلمين لما يجرى بين الناس من شئون الحياة كالبيع والرهن ، والشفعة ، والهبة .. وما الى ذلك ، فهل هذه من شئون الدنيا التى تركها الرسول للناس ؟ . وهل خلا القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف من بيان أحكامها ، وليست هذه المعاملات متركة للناس يقولون فيها بأهوائهم ، وانما وضعت الشريعة الاسلامية أصولا لكل هذه الأمور ، فاخراجها عن دائرة الشريعة لا يؤدى الا الى رفع حكم الله عنها ، وترك الناس يسيرون فيها كما يشاءون .

وقد استعان المؤلف فى خبطه ، وخلطه بكلام الشيخ محمد عبده ..

فأولا : ليقل الشيخ محمد عبده ، ومن هو أفقه من الشيخ محمد عبده ما شاء فاننا لا نأخذ ديننا عن هذا ، ولا عن ذاك ، وانما نأخذه من مصادره الأولى ، وهى معروفة غير مجهولة .

والمعاملات الاسلامية التى تكلم فيها الفقهاء مصحوبة بأدلتها من الكتاب والسنة والقياس والاجماع من صميم الشريعة ، وليست كتأبير النخل ، تلك الحادثة التى ورد فيها قول الرسول العظيم : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

وثانيا : كلمة الشيخ محمد عبده لا تعنى المعاملات

المعروفة ، ولا أظن الشيخ رحمه الله خطر بباله أن يخرج المعاملات عن حكم الشريعة ، وهذه هى كلمة الشـــيخ : (وأما تفصيل طرق المعيشة ، والحذق فى وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه الا من وجه العظة العامة ، والارشاد الى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون الها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل بأن يتصف به) •

وكيف يقصد الشيخ محمد عبده الى التعميم ، والله يقول « **وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة**[1] » ويقول : « **يأيها الذين آمنــوا اذا تداينتم بدين الى أجــل مسمى** » وهذه الآية هى أطول آية فى القرآن ، وقد جمعت كل ما يتعلق بكتابة الدين ، ويقول : « **وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنســتم منهم رشــدا فادفعوا اليهم أموالهم** ••• الآيــة » •

والميراث : أهو من العبادات أم من المعاملات ؟ وغير ذلك كثير فى القــرآن الكريم ، ينبغى أن يكون عند الذين يقولون فيما يتصل بالتشريع الاسلامى شىء من الحياء •

* * *

ويرى المؤلف ــ وهذا هو جوهر البحث ــ ان لكل واحد من أصحاب الأديان أن يؤدى عبادته على الصــورة التى

---

(١) البقرة من الآية ٢٨٣ •
(٢) النســاء من الآية ٦ •

بينه دينه ، فى معبده أو فى بيته أو فى خلوته ، أو فى أى بقعة من الأرض ، **فأينما تولوا فثم وجه الله** •

وهذا الكلام يحتمل وجهين :

الأول : أن يكون المؤلف قصد أن كل ذى دين من حقه أن يعبد الله على الطريقة التى نهجها له دينه ، لا حجر عليه فى ذلك ولا تقييد لحريته ، وهـذا أمر لا نخالف فيه ، فان الاسلام أمرنا بأن نترك أصـحاب البيع والكنائس يؤدون شعائر دينهم ولا نتعرض لهم فيها •

الثانى : وهو الذى يفهم مما كتبه المؤلف بعد ذلك — أن لكل ذى دين أن يؤدى عبادته على الطريقة التى رسمها دينه ، ولا يطلب منه أن يؤدى شعائر الدين الجديد ، وهو يقصد — كما هـو ظاهر — أن المسـيحى غير مطالب بأن يؤمن بالاسلام ، ولا أن يؤدى شعائره ، فان قيامه بشعائر دينه يغنيه عن ذلك •

ومعنى هذا انكار عموم الشريعة المحمديـة ، ومصـادمة الآيات القرآنيـة الصريحـة التى تدعو كل البشر الى أن يؤمنوا بالقرآن وبمحمد صـلى الله عليه وسلم ، وبأن يدينوا بدين الاسـلام •

وسنترك الكلام فى هذا المقصد الى موضعه الذى هو أليق به من حديثنا هذا •

* * *

ويسوق المؤلف (حكاية) خلاصتها أن بعض رجال الدين استنكر أن يقول أحد المحامين الشرعيين فى محام من أهل الكتاب قد مات : رحمه الله،ويغضب المؤلف لذلك ويقول : اذا كان حكمكم

على الكافر صحيحا ، فان النصراني ليس بكافر ، ويجنح الى ادلة يؤيد بها جواز الاستغفار لا للنصراني فحسب ، بل للكافر ايضا .

فينقل — أولا — عن الحسن : قيل يا رسول الله ان فلانا يستغفر لآبائه المشركين فقال : ونحن نستغفر لهم .

وعن علي : رأيت رجلا يستغفر لأبويه ، وهما مشركان ، فقلت له ، فقال : أليس قد استغفر ابراهيم لأبيه ؟

وينقل — ثانيا — عن الزمخشري في الكشاف أن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر ، ألا ترى الى قوله عليه السلام لعمه : لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك .

ويقول — ثالثا — بتبعية الجميع لبني آدم مستشهدا بقول الله سبحانه« يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»(1)

فكل من يتقي ويصلح فلا خوف عليه ، والأساس الأول هو التقوى ... هكذا قال — هداه الله — .

أما — أولا — فالمؤلف تجاهل مسألة (استغفار النبي للمشركين) فذكر أولها وترك آخرها ، ولو أنه كان أمينا لأثبت هذه الآيات : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم اصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه(2) .

---

(1) الاعراف ٣٥ .

(2) التوبة ١١٣ ، ١١٤ .

ولعل قائلا يقول : ان المؤلف قد غفل عن هذه الآيات ، أو لعله لا يحفظها ولا يعرف مكانها فى المصحف ، ولكن لا أدرى ماذا يقول هذا القائل اذا علم أن المؤلف نقل كل هذه النقول من تفسير الكشاف ، وعين فى هامش صفحة ١٣ من كتابه الجزء والصفحة من كتاب الكشاف ، وفى هذه الصفحة تفسير هاتين الآيتين ؟ .

والمؤلف من المؤمنين بالسيد رشيد رضا ، وهو يتكىء عليه فى كثير من بحوثه اذا وافقت هواه ، والسيد يقول بالحرف الواحد : (والمراد أنه ليس مما تبيحه النبوة ولا الايمان ولا مما يصح وقوعه من أهلهما : الاستغفار للمشركين فى حال من الأحوال حتى لو كانوا أولى قربى ، ويقول فى نفس الصفحة فى تفسير الآيتين الكريمتين : (والآية — ما كان للنبى — نص فى تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة ، وكذلك وصفه بذلك كقولهم المغفور له المرحوم فلان ، كما يفعله بعض المسلمين الجغرافيين الآن لعدم تحققهم بمقتضى الايمان ، وتقيدهم بأحكام الاسلام .

فما قول المؤلف فى هذا الكلام الواضح الحاسم القاطع ؟ أعتقد أنه اذا سمح لنفسه أن يغفل بعض آى القرآن ، فلن يسمح لها أن تغفل كلام السيد رضا ، لأنه يأخذ عنه فى كثير من الآراء .

وسنثبت له فيما يأتى من حديث : أن هؤلاء الذين يطلب لهم الرحمة كفار بنص القرآن ولكن نبادر فنذكره بقوله

تعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم[1] » وبقوله — سبحانه — : « لقد كفر الدين قالوا ان الله ثالث ثلاثة »[2] .

وقد جاء فى سبب نزول الآية (ما كان للنبى) روايات ، ومنها — كما ذكر صاحب الكشاف وصححه — أن النبى لما فتح مكة سأل أى أبويه أحدث به عهدا ؟ فقيل : أمك آمنة ، فزار قبرها بالأبواء ، ثم قام مستعبرا ، فقال : انى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى ، ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى ، فنزلت .

وقيل فى سبب النزول : قال المسلمون : ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ، وذوى قرابتنا وقد استغفر ابراهيم لأبيه ، وهذا محمد يستغفر لعمه فنزلت .

وان تعجب فعجب ما رواه المؤلف عن سيدنا على كرم الله وجهه ، وحقيقة الأمر أن عليا قال : سمعت رجلا يستغفر لوالديه وهما مشركان فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله : « ما كان للنبى » .

وأما — ثانيا — فمن قال للمؤلف : ان احكام الاسلام يتحكم فيها العقل وحده ؟ ولكى يتبين للقارىء مدى أمانة المؤلف ننقل له عبارة الكشاف التى اقتضبها المؤلف اقتضابا . أن الزمخشرى كان يفسر الآية الثانية ، (وما كان استغفار

(١،٢) الآيتان من سورة المائدة : الأولى من الآية ٧٢ ، والثانية من الآية ٧٣ .

ابراهيم لأبيه) فأورد سؤالا ، وأجاب عنه ، قال : فان قلت : كيف خفى على ابراهيم ان الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعــده ؟

قلت : يجوز أن يظن : أنه ما دام يرجى منــه الايمان جاز الاستغفار له ، **على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر انما علم بالوحى** لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر

فالمؤلف قــد ألغى الجزء الأول من كــلام الزمخشرى ، واكتفى بالجزء الثانى الذى أراد به ذلك العالم الجليل ان يعتذر عن ابراهيم ، فنقله المؤلف الى حديث يؤيد به مزعما من مزاعمه .

والعجب ــ أيضا ــ كيف ساق المؤلف قول النبى (ما لم أنه) ولم يذكر أن الآية نزلت تنهاه عن الاستغفار لأحد من المشركين .

وأما ــ ثالثا ــ فما معنى التقوى التى يســلم بها (النبى آدم) من الخوف والحزن ؟

أمن يدعى أن لله ولدا : أو أن الله ثالث ثلاثة هو ممن اتقوا وأصلحوا ؟

أمن جاءه دين من الله يدعوه الى أن يؤمن بالله وبرســله وكتبه فضرب بكل ذلك عرض الحائط ممن اتقوا وأصلحوا ؟

ومن كل ما تقدم يدرك القارىء بوضوح أن المؤلف عمد الى المغالطات ، والى اقتضــاب النصوص ليدعم دعاواه .

ثم يستطرد المؤلف الى جدل وقع بين مسلم وآخـر ، وقد عاب عنى المسلم استشهاده بقوله تعالى : « **ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم** »[١] ووجه العيب عنده أن الكلمة من قول اليهود ، يريد أنها لا تستعمل الا كما قيلت ، وزعم أن الشيخ المسلم أدركه الحصر ، وأنه — أى المؤلف — قال للشـيخ : حرام عليكم يا مولانا أن تفتروا على الله الكذب ، وان تأخذوا ما فى المصحف الشريف وتفهموه على ما يقضى به علمكم ، وتوقدوا بذلك نار الفتنــة بين المســلمين وغيرهم من أهل الكتاب .

والمؤلف يعلم أن جميع المسلمين عالمهم وجاهلهم ، يعاملون أهل الكتاب المقيمين بينهم كما أمرهم دينهم أن يعاملوهم : (لهم مالنا وعليهم ما علينـا) ويسـيرون على مقتضى قوله تعالى : « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديـاركم أن تبروهم وتقسـطوا اليهم ان الله يحب المقسطين** [٢]» . **ويعلم أنه لا مانع : لا عربية ، ولا دينا ، ولا خلقا ان يتمثل انسان بآية أو ببعض آية من القرآن اذا كان المقام يقتضى هـذا التمثيل ، وهو يفهم جيدا ما أعنيه بهذه الكلمة .**

وأعتقد أن نشر هذا الحديث كما ذكره المؤلف فى كتابه هو الذى يوقد نار الفتنة لا ما قاله الشيخ فى جدل محصور بينه

(١) آل عمران من الآية ٧٣ .
(٢) سورة الممتحنة آية ٨ .

وبين أحـــد الناس ، فمـــا الذى حمل المؤلف أن ينشر هذه الحكاية الصغيرة فى كتاب ؟

ثم يســـتمر المؤلف فيذكرنا بأن القرآن وصف النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمسلمين ، وذلك فى الآية الكريمة : « لتجدن أشـــد الناس عـــداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقـــربهم مـــودة للذين آمنوا الذين قالوا انـــا نصـــارى ، ذلك بأن منهم قسيســـين ورهبانـــا وأنهم لا يستكبرون[1] » .

ويكتب تعليقا فى هامش الصفحة على الأوصاف الأخيرة فى الآية فيقول : (لم تقل الآية ، وانهـــم غير مؤمنين بمحمد ، أو أنهم مسلمون معك !) هكذا بوضع علامة التعجب بعد هذه الكلمات .

والمؤلف لا يلتزم بما التزمت به كل الشرائع — فمن المعلوم من الأديان بالضرورة أن الايمان بالله وبرسله أساس النجـــاة من عذاب الله ، والله لا يغفر أن يشرك به — كما جاء بنص القرآن الكريم — فما وجه العجب فى أن يحـــكم على رجل لم يؤمن بأن الله واحد ، ولم يؤمن بأن محمدا رسول الله بأنه لن ينال رحمة الله ؟

المؤلف يذكر حكاية — كما يقول — على سبيل الفكاهة ، خلاصتها أن أحد المشايخ أجاب عن سؤال يتعلق (باديسون) فقال انه لا يدخل الجنة لأنه لم ينطق بالشهادتين ، فعجب المؤلف من ذلك أشد العجب ، ووجه للشيخ كلامه كأنه يؤنبه فقال له أولهم : بعد أن أضـــاء العالم حتى مســـاجدكم ، وبيوتكم باختراعه ، فأجابوه : لا ، ولو ، فعـــاد يســـأل ،

---
(1) المائدة ٨٢ .

الا يمكن أن يدخل الجنة عقـــلا ؟ وقد خيل اليه أنـــه حج المشايخ ، وسفه أحلامهم ، وهو ــ والله ــ مسكين ، فما دخل العقل هنا ؟ لقد قال الشـــيوخ : ان الرجل الذى لا ينطق بالشهادتين مهما أدى للعالم من خدمات فلن يغفر الله له ، وهو كلام يوافق صريح النصوص ، فان كان يريد الاحتكام الى العقل فهو يوافق العقل .

لقد أنعم الله على هذا المخترع بنعمة عظيمة ، وهى نعمة النبوغ ، وكان مقتضى هذه النعمة أن يعترف بوحدانية الله ، وأن يصـــدق بكتبه ورســـله ، ولكنه لم يحفل بذلك ، فمن الملوم ؟ انه هو ــ ولا شـــك ــ واذا حرم الله عليـــه الجنـــة فلأنه لم يشكر من وهب له هذه النعمة التى أضاء بها العالم ، ومع ذلك فكيف نحتـــكم الى العقل والنصـــوص صريحـــة واضـــحة ؟

اذا كان المؤلف مســـلما ، يؤمن بأن القرآن من عند الله فهذا حكم القرآن وان كان يرى أن الاسلام يتحقق دون أن يؤمن الانسان بأن القرآن من عند الله وبأن محمدا رسول الله ، وقد أرسل للناس كافة فالآن جاء الوقت للحديث معه فى هذا الشأن .

يبـــدو أن قوله تعالى : (**ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**) يبدو أن هذه الآية الكريمة أو على وجه الدقة ، ظاهرها قد أغرى كثيرا من المنحرفين لأن يتخذوا منهـــا برهانا على أن الايمان بمحمد ، وبالقرآن لا حاجة اليه فى النجـــاة عند الله .

ولعل أول الطريق ما وقع فيه السيد رشيد رضا ــ عن

غير قصد ــ فاتخذه هؤلاء سنداً وحجة ، وراحوا يقلدونه دون أن ينظروا فى جملة أقواله ، بل لعلهم نظروا ، ولكنهم وجدوا فى هذا الموضع ما يسعفهم ويساعدهم على ضلالتهم فتمسكوا به ، وكأنهم يجهلون أن الناس يعرفون القراءة ، وأنهم يستطيعون أن يرجعوا الى كتب التفاسير ، بل أن يرجعوا الى القرآن نفسه ، ويضعوا آية بجوار آية ، ويطمئنوا أخيراً الى الحق •

قال السيد رشيد رضا فى تفسير هذه الآية من سورة البقرة : (ولا اشكال فى عدم اشتراط الايمان بالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ) •

ومع أن هذا مخالف لما قال به جمهور المفسرين فى الآية ، ومع أن الايمان بالله يقتضى فى ذاته الايمان بكل ما صدر عنه ، فالايمان بالكتب المنزلة ، ومنها القرآن ، والايمان بالرسل ومنهم محمد جزء من الايمان بالله ، ولن يتحقق الايمان بالله الا بالايمان بكل ذلك ، ولذلك كان الاسلام الحق هو الايمان بالله ورسله وكتبه وملائكته ، واليوم الآخر والمسلمون لا يفرقون بين أحد من رسله ، مع ذلك نرجع الى السيد رشيد رضا نفسه لنجد أنه لا يعنى بهذه الكلمة مافهمه منها المنحرفون •

يقول فى تفسير قوله تعالى : : **« واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون[1] »** : (ان من مقتضى

(١) آل عمران ٨١ ، ٨٢ •

ذلك الميثاق أن دين الله واحد ، وأن دعاته متفقون متحدون ، فمن تولى بعد الميثاق على ذلك عن هـذه الوحدة ، واتخذ الدين آلـة للتفريق والعدوان ، ولم يـؤمن بالنبى المتـأخر المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره كأولئك الذين يجحدون نبوة محمد صلى الله عليه وسـلم ويؤذونه فأولئك هم الفاسـقون أى الخارجون من ميثاق الله ، الناقضون لعهده ، وليسوا من دينه الحق فى شىء) .

ويقـول فى التفسـير (جـ ١٠ ص ٣٠٠) : (من قال : انه يؤمن برسالته — يقصد محمدا — صلى الله عليه وسلم — الى العرب خاصة لا يعتـد بايمانه ، لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية مما جاء به) .

الى أقوال أخر كثيرة مبثوثة فى تفسير المنار عند مناسباتها ، وانما لفت النظر الى أقوال هذا المفسر لأن المؤلف يعتمد عليه كثيرا ، ويأخذ حتى تعبيراته ، ولكنه — مع الأسف — يبترها كما يبتر الآيـات والأحاديث ليوهم نفسه أنه وصـل الى غايته من خداع الناس ، وما خدع الا نفسـه ، والا الذين يظنون أنه حقق ما تهفو اليه نفوسهم المريضة .

ان رسالة محمد — صلى الله عليه وسلم — عامة أرسـل الى الانس والى الجن ، والى جميع النـاس ، وهو خـاتم النبيين والنصوص على ذلك كثيرة من القرآن الكـريم ، ومن الأحاديث النبوية الصحيحة ، وهى لشهرتها تغنى عن سردها هنا ، ولكن لا بأس أن نضـع أمام المؤلف بعضها مع يقيننا بأنه لا يجهله .

قال تعالى فى سـورة الأعراف : « **قل يا أيها الناس انى رسـول الله اليكم جميعا** » وقال سبحانه فى سـورة سبأ :

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » وقال عز وجل في سورة الأنعام : « وأوحى الى هـذا القرآن لانذركم به ومن بلغ » أى وأنذر به كل من بلغه من الثقلين .

وقال ـ وهوأصدق القائلين ـ في سورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » .

فهل يمكن مع هذه النصوص الواضحة لانسـان يحترم عقله ، ويحترم القراء أن يدعى ان الايمان بمحمد ، والايمان بالقرآن ليس واحد منهما شرطا في النجاة عند الله وأن كل ما يطلب من الانسان الايمان بالله ، وباليوم الآخر والعمل الصالح ، وهذه ـ كمـا يقول المؤلف ـ هى أركان الدين الأساسية .

أما تفسير الآية على وجهها الصحيح ، فيكفى أن يرجع من يريد الى أى كتاب منكتب التفسير ليعرفوجه الحق في تفسيرها ومهما أخذت هذه الآية على ظاهرها فلن تكـون الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع الخطير ، لأن في القرآن آيات كثيرة تتعلق بعموم رسالة النبى محمد وتتعلق بموقف الاسلام من أهل الكتاب ، ومن دعوتهـم الى الاسـلام ، وليس فيه آيات واحـدة تبيح لهم أن يبقوا على ديانتهـم الأولى معرضـين عما جاء به رسول البشرية ، ولا جاء ذلك في حديث صحيح حتى ولا غير صحيح .

فهل نلغى كل النصـوص الواضحة الصريحة لنتمسك مع المؤلف بظاهر آية واحـدة أبان كل المفسرين المراد منهـا ؟ ودلت الآيات الأخرى على انه لا يمكن حملها على ظاهرها .

ومن عجب أن المؤلف أخذ ينقـل من تفسير المنار ، فنقل خمس صفحات كاملات ولكنه تجاوز عن كل ما يتعلق برسـالة

محمد ومعجزته ، لانه يثبت بما لا يدع مجالا للشك دلالة القرآن على نبوة محمد وفيه هذه العبارة (وان القرآن قد بلغ مرتبة الكمال فى (الهداية) فاهتدت به الأمم والشعوب .

فمن كان يؤمن بها على علم بحقيقتها لا تقليـــدا لآبائه وقومه فيها لا يسعه أن يؤمن بالتوراة أو الانجيل أو الفيدا أو غيرهن من الكتب المنسوبة الى المرسلين الأولين ولا يؤمن بالقرآن وهو أكملها فى موضعها ، وأصحها الى من جاء به).

وفيها أيضا أن من كان يؤمن بالله وانه الرب الخالق للعالم بأكمل نظام المدبر لأمور العباد بالحكمة والاحتـــكام وتأمل تاريخ محمد لا يمكن أن يدعى أن القرآن من أمور التعاليم البشرية الكسبية .

فهل يمكننا أن نسأل المؤلف لماذا تغافل عن هذا وأمثاله من كلام الامامين اللذين يعتمد على أقوالهما : محمـــد عبده ورشيد رضا ؟ بل ليس لنا أن نسأل لأنا نعرف الجواب ، فان من يجرؤ على أن يأخذ بعض الآيات ويترك بعضا لا يستغرب منه أن يأخذ من كلام الشيخين ويدع .

ولكن سوء النية هنا لا يضر المؤلف وحده ، وانما يضع فى نفوس القراء الذين لا تهيىء لهم ظروفهم الاطلاع على ما كتبه الرجلان ، يضع سحابة من الشك ، فهو يسىء الى شيخيه — كما يدعى — اساءة بالغة حين يبتر أقوالهما ، ويأخذ منها ما يدل ظاهره على تأييده فى غرضه ، ولو نقل الكلام كاملا ، أو حتى لو لخص رأى الرجلين بأمانة لفهم الناس رأيهما على حقيقته ، ولكن كان أمامه أحد أمرين — اما أن ينقل رأيهما كاملا ، وحينئذ يلقى بكتابه فى اليم ، واما أن يتنكر للأمانة العلمية ، وحينئذ

يصل — فى دنيا الوهم — الى بعض غرضه ، ولعل هذا الكسب الخيالى الصغير أحب الى نفسه من سلوك سبيل العلماء .

— ٣ —

ويزعم أحد المؤلفين أنه نشر رسالته الموجزة ليكون لها مابتمناه من أثر فى العقول والقلوب والنفوس حتى يسود بين الناس السلام ، ويعم الوفاق والوئام ...

وعنده أن كل من يعمل على اثارة الخلاف فى البلاد ، وبث روح التفرقة الخبيثة بين الناس لا يكون مخلصا فى ايمانه الدينى ، ولا صادقا فى ولائه الوطنى .

ونحن معه فيما يقول، ولكن ما الوسيلة الى هذا الهدف النبيل؟

كان على المؤلف أن ينحى باللائمة على كل من يعمل على التفرقة ، سواء كان مسلما أو يهوديا ، أو نصرانيا ، وأن ينبه كل فريق على الأخطاء التى يرتكبها فى حق الدين والوطن كما كان عليه أن يلتزم بجانب الحق والصدق ، فلا يذهب يفسر نصوص دين من الأديان على ما يسوله له هواه ، فان ذلك يؤدى الى عكس مقصوده .

فليس مما يؤلف القلوب أن يعبث عابث بكتابها ، وبأصول دينها ، فالمؤلف ممن يصدق عليهم أنهم يعملون على اثارة الخلاف، وبث روح التفرقة الخبيثة ، ذلك أنه قصر لائمته على فريق من علماء المسلمين ، وادعى فى أكثر من موضع من كتابه أنهم يعملون على تمزيق الروابط ، وهذه عبارة من عباراته بنصها ، ونصها :

(وان الذى يملأ النفس أسى أن هذه الآية الكريمة ــ يريد قوله تعالى:« ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » ماتزال تفهم فهما خاطئا وهذا ــ ولا ريب ــ له أثر بالغ فى تمزيق الروابط بين المسلمين، وبين اخوانهم الأقباط ، والقاء العداوة والبغضاء بينهم باسم الديــن) .

ففهم آية على غير وجهها ــكما يزعمــ ذو أثر بالغ فى تمزيق الروابط والذين فهموا هذا الفهم الخاطىء انما هم (كثير) ــ ثم يستمر يسخر من بعض العلماء ، ويرميهم بالجهل .

فهل صحيح أن أحد العلماء استنكر أن يكون النصارى أهل كتاب ؟ حتى أرشده المؤلف الى موضع ذلك من كتاب الله ؟

أما كان واجب الحق ، والانصاف يقتضى المؤلف ألا يلقى التبعة كلها على مشايخ المسلمين وعامتهم ؟ ...

وأن يقول ولو كلمة عتاب رقيقة لأولئك الذين يعملون جاهدين على هــدم الاســلام من المبشرين ، والمستعمرين وأذنابهم وأن يوجه ــ أن كان صادق النية ــ ولو كلمة رجاء الى رؤساء الحكومات المسيحية الذين يضطهدون المسلمين الخاضعين لهم ؟ .

أن أحدا لا ينكر حتى من أشــد المتعصبين على الاســلام والمسلمين أن الأقباط فى البلاد الاسلامية يلقون من التكريم ، ومن المعاملة المنصفة العادلة مالا يظفر بشىء منه المســلمون المقيمون فى دول مسيحية ، متعصبة لمسيحيتها ، وأن الوعاظ الذين يدعون الى الاسلام فى البلاد التى يذهبون اليها لايسمحون

لأنفسهم ولا يسمح لهم دينهم أن يلجأوا ـ فى دعوتهم ـ الى أية وسيلة من الوسائل الدينية التى يتذرع بها المبشرون ، ويعتمدون عليها •

فهل من العدل والعقل أن تصدر دعوة للاتحاد ، والائتلاف بين أهل الأديان ولا نشير بكلمة واحدة لكل هذه المعاول التى لا تفتأ تهدم فى بناء الانسانية ، فى حين ترفع عقيرتها بأن فهم بعض المشايخ لآية فى كتابهم ـ وهو فهم سليم ـ ذو أثر بالغ فى التفرقة ؟

ان المؤلف (الشيخ) الذى يبكى لأن أحد المشايخ قال : ان رحمة الله لا تنال ، لم يذرف دمعة واحدة على ما امتلأت به كتب المبشرين ، والمتعصبين من الطعن على الاسلام ، وعلى نبى الاسلام ، وعلى السابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين الذين نشروا هذا الدين وآزروا نبيه ونصروه •

ولذلك يحق لنا أن نقول صادقين : ان صنيع هذا المؤلف معول هدام فى بناء الألفة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى •

* * *

والمؤلف يتلمس كل بارقة ـ ولو كان برقها خلبا ـ ليؤيد بها دعواه ، وهو لا ينى يحمل النصوص فوق ما تحتمل ، أو يؤمن ببعضها ويكفر ببعض •

وليس هذا الصنيع ـ فقط ـ فيما يتعلق بآى القرآن الكريم ، بل هو يفعل ذلك بآراء الذين ينقل عنهم ، فيأخذ منها ما يظن أنه يؤيد دعواه ، ويتجاهل ما ينقض عليه هذه الدعوى ،

وبذلك يسيء اليهم ، لأنه لو نقل آراءهم كاملة لرفع ســوء ظن القــارىء بهم •

فقد حاول المؤلف محاولة يائسة أن يعتمد على قوله تعالى : (ان الدين عند الله الاسلام[1]) فمن أول الطريق أراد أن يبعد عن الأذهان أن المراد بالاسلام هو : هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكتب تحت هذه الآية وبين قوسين: أى اسلام الوجه.ثم أخذ فى شرح كلمة اسلام ، ناقلا ، فيقول: (والاسلام مصدر أسلم ، وهو يأتى بمعنى خضع ، واستسلم، وبمعنى آدى ، يقال أســلمت الشيء الى فلان اذا أديته اليه ، وبمعنى دخل فى السلم بمعنى الصلح والســـلامة ، وبالتحريك الخاص من الشيء ومنه قوله تعالى : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل[2]) •

(وتسميته دين الحق اسلاما يناســب كل معنى من معانى الكلمة فى اللغة ، قال تعالى : ومن أحسن دينا ، ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) •

ثم يجيء بهذه العبارات ، ويضع تحتها خطوطا ، لينبه على أنها موضع الاقتناع : وقد علم بذلك أن الحصر فى قوله : (ان الدين عندالله الاسلام) يتناول جميع الملل،التى جاء بها الأنبياء لانه روحها الكلى ، الذى اتفقت فيه على اختلاف بعض التكاليف، وصور الاعمال فيها ، وقد أخبر القرآن فى غير موضع أن الأنبياء كلهم كان دينهم الاسلام •

ويمضى يستشهد بآى القرآن على هذا المعنى فيذكر اسلام

---

(١) آل عمران • من الآية ١٩ •
(٢) الزمر • من الآية ٢٩ •

نوح ، واسلام ابراهيم ، ثم اسلام من فى السموات ومن فى الأرض •

وخلاصة كل هذا عند المؤلف ـ أن اليهودية ـ الآن ـ دين حق ، وأن دين محمد دين حق ، وهى كلها اسلام وهى كلها الدين عند الله ـ وليس الأمر ـ كما يفهم المسلمون ـ أن الدين الحق هو الايمان بالله ، وبالقرآن وبمحمد وهو الاسلام •

فأولا : هل يمكن فى نظر عاقل ان يكون الانسان مقرا بوحدانية الله ، مسلم الوجه له وهو لا يؤمن بكتاب من كتبه ـ وهو القرآن ـ وبرسول من رسله ـ وهو محمد ؟ •

واذا كان ذلك غير ممكن ، لأن معنى الايمان بالله الايمان بكل ما جاء من عنده فكيف تكون اليهودية الدين عند الله هكذا بطريق الحصر ، وهى لا تؤمن لا بالقرآن ولا بمحمد ؟ وهذا يقال فى كل دين يخالف دين الاسلام •

ان النتيجة الحتمية للايمان بالله ايمانا صحيحا ، هى الاقرار بأن الدين الذى جاء به محمد دين حق ، واذا أقر انسان بذلك وجب عليه أن يلتزم التكاليف التى جاء بها هذا الدين وهذا مايطلبه الاسلام من أهل الكتاب ومن غيرهم واذن فمن تمسك باليهودية أو غيرهـا ، ولم يؤمن بشريعة محمـد ليس مسـلما ، وليس ناجيا ، ولو أخلص العمل ولو آمن بالله ، واليوم الآخر ، وليس من أتباع (الدين عند الله) •

وثانيا : المؤلف نقل كل ما أورده هنا ـ عن تفسير المنار للسيد رشيد رضا فياليت شـعرى هل وقف المؤلف ـ وهو يطـالع هذا التفسير عند هذه الكلمات أو استمر فى القراءة فوجد فى آخر تفسير هذه الآية قول صاحب المنار : (ولذلك كان اسلامهم ـ يريد أهل الكتاب ـ لابد أن يستتبع اتباعك فيما جئت به ، لأن من كان كذلك فهو نير القلب متوجه ـ دائما ـ الى طلب الحق فهو أقرب الناس الى قبوله متى جاءه وظهر له) .

وثالثا : لقد أغفل المؤلف فى هذا الموضع قوله تعالى : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه[1]) ـ مع أنه تتبع كلمة الاسلام فى القرآن ـ فهل صنع ذلك لأنه يعرف ان كان يعرف أن سياق الآيات فى هذا الموضع ترجح تفسير الاسلام بشريعة محمد فهو يهرب من كل ما يشير من قريب أو بعيد الى ما ينقض عليه دعواه والى ما يفيد أن أهل الكتاب ملزمون بالايمان بمحمد وبالقـرآن .

ورابعا : أى مانع يمنع من تفسير الاسلام فى الآية الأولى بدين محمد عليه الصلاة والسلام والرسول قد بين فى حديث صحيح مشهور أن (الاسلام) بنى على خمس ، منها شهادة أن محمداً رسول الله ، وفى حديث ابن عمر الذى رواه عن أبيه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ، أن جبريل عليه السلام سأل النبى عن الاسلام فأجابه : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فصدقه جبريل .

---

(١) آل عمران . من الآية ٨٥ .

فاذا كان مشهوراً عند نزول القرآن أن الاسلام ، هو الايمان بالله وبمحمد وبالقرآن ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وحج البيت ، واذا كان القرآن خاتمة الكتب السماوية ، وهو يخاطب الناس جميعا ، اذا كان كذلك كان بديهيا أن يراد بالاسلام فى الآيتين : ان الدين عند الله الاسلام • ، « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » هذا الدين الجديد ، الدين الخالد ، الدين الذى كتابه القرآن ورسوله محمد ، والمدعو اليه الناس كافة •

وخامسا : من العجيب أن هذه السورة التى وردت فيها الآيتان السابقتان ـــ وهى سورة آل عمران ـــ أطالت الحديث عن أهل الكتاب ، وخاطبتهم ، ووبختهم على جحودهم بنبوة محمد ، وأنه ليكفى قليل من الانصاف ، ومن احترام العقول ليؤمن من يقرأ هذه الآيات : ان أهل الكتاب مطالبون بالايمان بمحمد •

* * *

قضية المرأة

— ١ —

لم تتعرض نصوص الاسلام وشرائعة للزراية ، والتحريف والتهجم الحاقد فى قضيةمن القضايا كما تعرضت فى هذه القضية.

والمرأة — كما لا ينكر أحد من العقلاء — ذات رسالة سامية فى الحياة لها مكانتها فى نفوس الرجال ، ولها احترامها وتقديرها، أما ، وزوجا ، وأختا ، وبنتا .

ولئن كانت القوانين الوضعية فى مختلف العصور ، والأمم ، عنيت بالنص على ما ينبغى أن تعامل به المرأة ، من البــر ، والاكرام ، والتقدير ، والاحترام وعنيت باعطائها حقها وتمكينها من أداء رسالتها ، فان الشرائع السماوية قد عنيت بكل ذلك على أتم وجه ، وأعدله .

والاسلام — بخاصة — من بين هذه الشرائع بلغ فى ذلك ما لم تبلغه شريعة سماوية ولا قانون وضعى .

وآية واحدة فى كتاب الله تبين المدى الواسع ، والمنزل الكريم الذى وضع الله فيه بنات حواء ، وتشير — مع ايجازها — الى غاية ما تطمح اليه كل امرأة عاقلة، مؤمنة بربها ، خبيرة برسالتها، بصيرة بما يضرها وبما ينفعها : تلك هى قوله تعالى فى سورة البقرة : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

وكما نهج القرآن الكريم لأتباعه طريقة سمحة كريمة فى معاملة المرأة كان الرسول عليه الصلاة والسلام يكثر من الوصاة بالنساء خيرا ، حتى روى أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ، ثلاث كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه ، وخفى كلامه ، وهو يحتضر ، وهذه الثلاث هى : الصلاة ، والرقيق ، والنساء ، وقد بدأ وصيته بالنساء بقوله : الله : الله فى النساء ، وهو أسلوب يشعر بمدى اهتمامه عليه السلام بهذه الوصية .

عرض الاسلام لكل شأن من شئون النساء فى قضايا كلية واضحة ، ومسائل جزئية واضحة أيضا فجاء فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية المطهرة ، نصوص تبين ما للمرأة، وما عليها .

كل ذلك حق ، ولكن فريقا من المنحرفين والمنحرفات ، يتنكرون لنصوص الاسلام ، أو يحاولون التخلص منها ، أو تحريفها حين يخوضون فى هذه القضية .

فمنذ ما يقرب من عشرين عاما بلغت الجرأة بعالم أزهرى

يطرح الدين بعيدا عن قضية المرأة ، فأرسلها دون وعى أو استحياء ، انه (ليستحى أن يقحم الدين فى مسألة نفض يده منها) ، هكذا جاء على لسان أحد الكتاب ، وما نظن الا أنه نادم الآن على كل ما قاله •

الدين نفض يده من قضية المرأة ، كأن الاسلام أنزل للرجال دون النساء وكأنه — كبعض النظم الوضعية الفاسدة — لا يعترف للمرأة بوجود فى هذه الحياة ، وهذا

شر ما يرمى به نظام من النظم سواء كان من وضع البشر ، أو من وضع السماء ، فكيف نتهم به الاسلام ، وهو الدين الخالد الذى جاء من العليم الخبير ، الحكم العدل ؟

وهذا المؤلف الذى استحى أن يقحم الدين فى قضية المرأة — بادىء ذى بدء — عاد فتمسح بالدين فى آخر الحديث ، فقال : على أن هناك حجة حاسمة تغنينا عن كل حجة ودليل ، هى ذلك التفويض المطلق الذى منحه الدين للناس حين قال الرسول : أنتم أعلم بشئون دنياكم ، أليست هذه الحقوق السياسية من شئون الدنيا !

وعجيب أمر هؤلاء الذين يفسرون الاسلام بأهوائهم كلما واجههم قائل فى شأن من الشئون بنصوص تضيق بها صدورهم ، فيلجأون الى هذا الحديث : أنتم أعلم بشئون دنياكم ، وهم يعرفون ان احسنا الظن بهم — المناسبة التى قيل فيها الحديث ، والمدى الذى لا يمكن أن يتعداه ما يشير اليه ، ولكنهم يجهلون ، أو يتجاهلون •

حقوق المرأة السياسية من شئون الدنيا ، كأن المرأة حين تمارس هذه الحقوق تمارسها فى معزل عن المجتمع ، وتقوم بها بعيدا عن الرجال ، وكأن الاسلام لم يحد لظهور المرأة بين الرجال حدودا ، ولم يضع لتصرفاتها ووظيفتها فى الحياة تعاليم ، وشرائع ، وكأن الرسول لم يقل فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى : لن يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة ، وكأنه لم يقل : اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة •

ولكن المؤلف لا يعترف الا (بالتطور) فكل ما وصلت اليه المرأة استجابة لقانون التطور ، من نحو السفور المعيب ، والاختلاط المريب هو — عند المؤلف — (الفضيلة) • فهو يقول : (ليس هناك اثم أشد ولا خطيئة أفحش من مقاومة التطور) ، وهكذا بدون قيد ولا شرط ، فلا بأس أن يكون التطور الى أسوأ ، وأن يكون مجافيا للتعاليم الاسلامية ، وللفضائل الاسلامية •

هذا فى الحقيقة — أنموذج فقط للانحراف فى هذه القضية ، وانما عنينا بهذا الانموذج — على قدمه نوعا — لندل على المدى الذى بلغه الكائدون للاسلام من بلبلة الأفكار ، واشاعة الشك فى نصوص الدين ، فالمؤلف عالم ، وعالم تخرج فى الأزهر الشريف ، فاذا صدر منه مثل هذا القول كان من الخطورة بمكان •

ولا أظن أنه يذهب عن أكثر هؤلاء المشرعين فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ان جماهير المسلمين تنفر من كل حكم يضعف مستنده من الدين •

انى أعد قانون الأحوال الشخصية الذى تعمل به المحاكم الآن قانونا ميتا فى ضمائر المسلمين ، ولطالما استفتانى رجال ، وكان كل منهم يطلب الى مع توجيه سؤاله ألا أفتيه بما تسير عليه المحاكم الشرعية الآن ، فقلبه لا يطمئن به ، وقليل من

الناس من يتقبل هذه الأحكام ربما للضرورة القصوى ، وربما لأنه يستهين بعامة أحكام الدين •

ان مسألة كمسألة الطلاق ينبغى أن نلتزم فيها رأى جمهور الفقهاء فان ذلك أصون للعلاقة الزوجية ، وأنظف لها فى ضمير الرجل والمرأة على السواء ولقد رأيت من النساء من استبد بها القلق على حياتها الزوجية الطاهرة ، لأن زوجها يعاشرها بعد طلاق استند فى الخلاص منه الى رأى ضعيف من آراء بعض الفقهاء •

ثم نرى الخلط، والخبط ، والانحراف، والجرأة ، والضلال، والسفه •

فهذا مستشار يعجب لماذا لا تأخذ المرأة فى الميراث نصيبا كنصيب الرجل ، وينادى بذلك ويدعو اليه وهو بطبيعة عمله يعرف تمام المعرفة النص الواضح الصريح الذي جاء فى القرآن الكريم خاصا بهذا الحكم ، كأنه يقول لنا : لا داعى للتمسك بنصوص القرآن •

ولا بأس عليه فقد سمعنا عالما كبيرا يذيع على الناس انه من حقنا أن نهمل النص اذا اقتضت المصلحة اهماله •

وهذا عالم يرى أن ضرب الرجل امرأته للتأديب (وحشية) ، وينسى أو يتناسى أن القرآن الكريم جعل هذه العقوبة احدى الوسائل لاصلاح المرأة فى نص لا يتحمل التأويل .

وكاتب يرى أن قول الرسول الكريم فى النساء أنهن (ناقصات عقل ودين) من الأقوال (البشعة) .

وكاتبة ترى أن القرآن لم يفسر الى الآن بمعانيه الحقيقية وينبغى أن ينشط علماء العصر ، وأن يفسروه بهذه المعانى حتى تأخذ المرأة كل حقوقها .

وكاتبة أخرى ترى وجوب المساواة التامة بين الرجل والمرأة، فاذا قيل لها : ان الطبيعة والنصوص الدينية تأبى كلها هذه المساواة فالله سبحانه وتعالى يقول : « وللرجال عليهن درجة » ويقول : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » ، أجابت بأن (الميثاق) كفل للمرأة هذه المساواة ، ونسيت أن (الميثاق) قرر بعد مبدأ المساواة ، كما قرره الاسلام ، وانه ما كان للميثاق ، وهو عمل حكومة مسلمة لأمة مسلمة أن يخرج عن أصول الدين . والحق أن الكاتبات المتطرفات يسئن الى الميثاق بمثل هذا المنطق حين يدعين أنه أعطى لهن ما لم يعطه الاسلام ، والميثاق برىء مما يهرفن .

فهل الميثاق أعطى للمرأة حق أن تطلق زوجها متى أرادت؟ وهل الميثاق أعطى لها حق أن تتزوج من اثنين فى آن واحد ؟ وهل الميثاق فرض عليها أن تقوم بنفقة زوجها وأولادها ؟

ان عيب الكاتبات المتطرفات عندنا — مع جهلهن بأحكام الدين — انهن لا يتورعن أن يطوعن لرغباتهن كل القوانين وكل النظم ، وينسين المدى الذى يستطعن أن يتساوين فيه مع الرجال لتصلح حياة الأسرة ، وحياة المجتمع •

ونعود الى قصة (ضرب المرأة) ، ذلك أن امرأة ضربت زوجها ، ورفع الأمر الى القضاء فأدانها القاضى قائلا : ان للزوج حقا فى تأديب زوجته جسمانيا وضربها ، فثار أحد الكتاب لذلك ، واعتبره مظهرا من (مظاهر اهدار حقوق المرأة، والتفنن فى ظلمها) وان المرأة (لذلك تريد أن تمارس حقها السياسى لترفع الاصر والاغلال التى عليها وتقضى على الفوارق الظالمة ، المتعسفة) •

واذن ، فمن حق المرأة — عند هذا الكاتب وأمثاله ، ومثيلاته أن تؤدب زوجها بالهجر والضرب ، حتى لاتكون هناك فوارق ظالمة متعسفة ، ونسى الكاتب أو تناسى أن القاضى الفاضل انما استمد حكمه من قول الله تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا »[1] •

ولو تأمل المجاملون للمرأة ، و (المتملقون) لها و (الواقعون تحت سلطانها) هذه الآية جيدا ، ثم نظروا فى نصوص

---

(١) سورة النساء • من الاية ٣٤ •

الشريعة لرأوا أن هذا (الضرب) لابد منه فى بعض الحالات ، وأنه يكون فى أضيق الحدود .

فالآية الكريمة بدئت بأمر يخشى منه على كيان الأسرة ، وهو (النشوز) من المرأة طبعا ، ثم ذكرت لهذا الداء الوبيل ألوانا من العلاج ، لا يلجأ الى ثانيها الا بعد اخفاق أولها ، فالوعظ ، ثم الهجر فى المضجع ، ثم الضرب ، وقد فسره العلماء بالضرب الخفيف ، ثم لم يقف النص عند هذا الحد ، بل نهى الرجال أن يكون لهم سبيل الى ايذاء النساء متى أطعنهم ، وعدلن عن هذا النشوز الذى يهدد حياة الأسرة ، ثم ذكر الرجال بأن الله على كبير فاذا كان منهم من يخدعه سلطانه وقوامته على بيته ، ويظن فى نفسه العلو ، والاستكبار فليتذكر أن الله أعلى وأكبر وأنه محاسب اذا بغى وتجبر .

على أن الضرب لم يشرع الا فى حالات خاصة ، ولنوع خاص من النساء ، وقد بين الرسول الكريم أن الضرب أمر توجبه الضرورة ، وأن على الانسان أن يتفاداه ما استطاع ، فاذا لم يجد حيلة للاصلاح الا الضرب فلا حيلة الا اللجوء اليه .

وينبغى أن يعترف أنصار المرأة ، بل المتطرفات من الناديات بمساواة المرأة للرجل بحقيقة مشاهدة ملموسة ، وهى أن من النساء من لا يصلحها الا الضرب ، ولولا خوفها من بطش زوجها لفسدت ، وأفسدت وان الاسلام لو حظر على الرجل هذا الحق لتعذر على رب الأسرة أن يقوم حقا على بيته .

على أن المؤسف • أن هذا الأمر ليس خاصا بالجاهلات ، أو الساكنات فى أجواف الصحارى ، وعلى قمم الجبال ، بل أن من النساء المتعلمات المتحضرات من لا يقيمها على الجادة ، الا الخوف من رجلها •

وصدق الله العظيم ، ورغمت أنوف المكابرين والمكابرات ، والمنحرفين والمنحرفات •

— ٢ —

قلت : ان أكثر المتحمسين ، والمتحمسات لاعطاء المرأة أكثر مما اوجبه الشرع والطبيعة لها • لا يحتكمون الى نصوص الاسلام ، وشرائعه ، ولا يعنيهم هذا الأمر فى قليل او كثير ، بل ان بعضهم يعمد الى مصادرة النصوص الدينية تلميحا أو تصريحا ، فاذا خطر لأحدهم أن يحتكم الى نص دينى حاول أن يتعسف فى فهمه ، وان يقسره قسرا على ما يريد ، وان كان فقه الاسلام ، وفقه اللغة العربية يابيان ذلك •

ولعل من تجاهل التعاليم الدينية ــ فى هذا الشأن ــ تجاهلا خبيثا مقصودا ان تطرح قضايا نصوص الدين فيها واضحة ، وآراء الشراح والفقهاء فيها معروفة ومدعمة بالأدلة ، أقول : تطرح هذه القضايا للمناقشة كما تطرح مسائل الأزياء ليقول فيها من يعرف ومن لا يعرف ، بل ربما طرحت ليؤخذ فيها رأى من لا يعرفون دون من يعرفون •

طرحت احـدى الصـحف موضـوع الطلاق والحضـانة للمناقشة وآخذت فى كل منهما رأى بعض الناس ؛ فمن هم الذين أخذت آراءهم ، وسجلتها فى تحقيقها الصحفى •

لقد استعرضت فى قضية الطلاق والحضانة آراء خمسـة من مختلف أبناء الشعب :

وقد ظهر مما قاله هؤلاء أن واحدا منهم لم يدرس دراسة دينية متخصصة ولم يستند واحد منهم الى نص من نصوص الاسلام ولا الى رأى عالم من العلماء •

وقد اقترحت بعض الحكيمات أن ينص على أن الحضـانة للأم دائما والى الأبد ولا يسحب منها هذا الحق الا فى ظروف عصيبة كأن تنحرف أو يسوء سلوكها •

والصحيفة تفضلت فأبرزت الاقتراح كأنها تراه اقتراحـا عظيمـا •

وما رأينا ، ولا سمعنا أن انسانا جادا ، أو هيئة تحترم عقول الناس تلجأ فى القضايا الخاصة الى غير ذوى الاختصاص فنحن لم نر ــ مثلا ــ مسألة فى الطب ناقشها غير الأطباء ، ولا موضـوعا فى الاقتصـاد تكلم فيه غير الاقتصـاديين ، ولا مشكلة فى الزراعة عرضت على الطلاب أو الموظفين • فهل أمر القضايا الدينية أهون من كل هذه الأمور •

لاشك ان هذا اتجاه خطير يشعر بأن هذه القضايا التى هى

من صميم الدين ليس من الضرورى أن ننظر فيها نظرة دينية، وانما ينبغى أن نستطلع فيها رأى عامة النا س لنعرف مدى حكمهم عليها ، ولا علينا بعد ذلك ان كان الدين يوافق آراء هؤلاء أو يخالفها وهو تجاهل غريب للدين فى أمة هى — بحق — زعيمة للعالم الاسلامى .

ومما زاد الطين بلة أن الصحيفة حين علقت على القانون الجديد للأحوال الشخصية رأت أنه لم يحقق نصرا الا للرجل وحده ، وذلك فى معظم التعديلات .

وكأن القوانين وضعت لترضى هذا الفريق ، أو ذاك ، أو لمجرد أن تكون نصرا لأحد الجنسين على الآخر ، وكأنها لا تستمد من الدين فينبغى أن توضع بحيث ترضى أو لا ترضى .

وما دام المقصود ارضاء المرأة فلن يجىء هذا القانون ، لأن المرأة المصرية لا يقف طموحها عند حد ، وهى لن ترضى حتى تتساوى بالرجل فى كل شىء ، بل هى تريد أن تكون القوامة على الرجل .

واذا استمر الحال على هذا المنوال من ممالأة الكتاب للمرأة ، والبعد عن فقه الاسلام فلن يطول بنا الزمن حتى نرى المرأة تطالب بحقها فى تعدد الأزواج .

وانا لا أدرى لماذا لا يرفع هؤلاء المطالبون بالمساواة التامة

أيديهم الى الله تعالى يتضرعون اليه ، ويطلبون منه أن يتفضل على المرأة فينبت لها لحية وشاربا ؟ !

ولا حاجة بى الى أن أقول : انه ليس من حق هيئة من الهيئات أن تشرع للناس فى أمور دينهم مالم تدرس هـذه الأمور دراسة واعية مستنيرة ، وما لم تأخذ رأى رجال الدين فيما تـدرس .

فاذا حدث ، وتعدت هيئة طورها وقالت فى شريعة الله بمالا تؤيده أصول هذه الشريعة ، فانها بذلك تزعزع الثقة فيها ولن يستمع أحد لما تقـول .

وقد قرأت أن دولة من الدول سـنت تشريعا يحاكم من يطلق دون اذن القاضى أو يتزوج على زوجة اخرى وهذا تجاهل للحرية الدينية التى منحها الاسلام لأتباعه ولن يشفع له أن رأيا قديما من عالم أو فقيه قال به ، فما كل ما قيل يؤخذ به اذا لم يكن دليله قويا واضحا .

ومن العجيب أن نجد بعض الدول الغربية تميل الى نظام تعدد الزوجات ويرى فيه بعض كتابهم الحل الوحيد لمشكلة زيادة عدد الاناث عن الذكور ، فى حين نجد حكومة مسلمة تقيـده .

ونحن لا ندعو لتعدد الزوجات ، ولكننا لا نحب أن يقف أحد فى سبيل حرية المسلم وتبعة عمله عليه ، ويكفى أن نبصره بالأضرار التى قد تعود عليه اذا أقدم على التعدد وهو غير قادر أن ينفق على أسرته ، ثم له بعد ذلك ما يشاء .

كما ندين بشــدة أولئك العلمــاء الذين ينزلقون ارضاء (للبعض) فيقولون ان تعــدد الزوجات لا يكون الا عند الضرورة ، فليس فى الاسلام هذا الشرط • بل ان الاسلام يبيح للرجل أن يتزوج على امرأته متى آنس فى نفسه القدرة على الانفاق والقدرة على العدل ، ولقد نعلم أن عددا لايحصى من الصحابة ومن سلفنا الصالح عددوا دون ضرورة •

وقد سبق ان قلت ان قضية المرأة من بين القضايا اتسمت بتنكر غريب لأحكام الاسلام ولعل أظهر الموضوعات فى ذلك موضع (تعدد الزوجات) فمنذ عابنا متعصبو الغربيين، بهذا التعدد ، ونحن نحاول أن نظهر الاسلام أمامهم بمظهر البرىء من هذه الوصمة التى يزعمونها ، ومنذ ظهر سلطان المرأة ونحن نجاملها على حساب الدين فى هذا الموضوع •

وأكثر الذين تكلموا فى موضوع تعدد الزوجــات أعطــوا لأنفسهم حق المجتهد ولو كان كثير منهم لا يعرفون من الاسلام أكثر مما يعرفه المبتدئون من الطلاب •

والشــبهة التى عششت فى رءوسهم هى الجمع بين آيتى النساء الأولى التى تقول : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، والثانية التى تقول : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » •

ولهذه الشبهة ذهب بعضهم الى أن الشريعة الاســلامية حرمت التعــدد تحريما باتا ، وذهب بعض المحتــرفين من الصحفيين الى أن ذلك رأى كثير من الفقهاء •

ولعل القول يطول لو أعدنا ما قيل فى الرد على هؤلاء ، ولكن أمرا واحدا لا أدرى كيف طووا أنفسهم عليه ، ذلك أن النبى وأصحابه وتابعيهم والعلماء منذ الصدر الأول الى يومنا هذا يقرءون هاتين الآيتين ، ويجيزون التعدد قولا وعملا .

فهل فقه بعض المعاصرين ما لم يفقهه علماء المسلمين مدى أربعة عشر قرنا أو تزيد ، وأن واحدا من أولئك العلماء الاعلام ليعدل أقل تلاميذه علما عشرات . بل مئات من هؤلاء الذين يفتون بغير علم .

ومهما انكرنا من قدرة أعداء الاسلام فلن نستطيع أن ننكر شيئا واحدا ، هو أنهم استطاعوا أن يشيعوا البلبلة فى فهم النصوص ، وأن يشككوا بعض ضعاف الايمان فى تعاليم دينهم ، حتى تعدى ذلك الى علماء الدين أنفسهم فى قضية المرأة .

ولا تزال الدعوة مستمرة ، وحادة ، ومنحرفة فى قضية المرأة ، وآخر ما قرأناه مقالة لاحدى الكاتبات تدعو فيه الى الاختلاط التام بين الفتيان والفتيات فى كل مرحلة من مراحل الحياة ، فعلى الأسرة أن تزيل رواسب الحريم ، وأن تجمع بين الفتى والفتاة منذ الطفولة فى صداقات عائلية ، وتمكن لهذه الصداقات ، وبذلك ــ كما قالت ــ يضمن لبنت السادسة عشر المتفتحة فى مجتمعنا المتجانس انطلاقا سويا بلا أزمات ، ولا تعقيدات .

وهكذا من أجل (عيون) التعقيدات المزعومة ينبغى أن نترك

الأمر فوضى بين الفتيان والفتيات منذ الصغر ، كأنه لا يكفى الاختلاط فى الجامعة ، بل ينبغى أن يكون فى المدرسة الابتدائية والاعدادية والثانوية ، وفى البيوت ، وفى المصنع والحقل وفى كل مكان وزمان .

وهذا آخر فلسفة المرأة المثقفة ، وهذا علاجها الحاسم للأزمات التى تتعرض لها الفتاة فى سن المراهقة ، أن نتركها تختلط بالشبان منذ الصغر .

وهذا كلام بطبيعة الحال لم يحسب أى حساب للآداب الدينية ، ولم تلق صاحبته أى بال للنصوص القرآنية ، ولا شك أنها تعرف هذه النصوص ولكنها عن عمد وعن قصد تريد أن تفهمنا أن علاج بناتنا ، وأبنائنا فى غير السير على مقتضى هذه النصوص .

ولعل من العبث أن أشرح لهذه الكاتبة ولغيرها ماجناه علينا ، وعلى غيرنا الاختلاط بين الفتيان والفتيات ، ولكن الذى ينبغى أن تعيه الكاتبة جيدا أن الأزمات التى تتعرض لها الفتاة مهما كانت قاسية هى خير من أن تفقد الفتاة من الصغر شرفها .

والعجب من هؤلاء الصائحين ، والصائحات لا يحلو لهم ولهن كلام الا فى القضايا التى يكون فى الدفاع عنها مخالفة لقواعد الاسلام ، أما حين تكون للمرأة قضية عادلة تؤيدها النصوص الصريحة فى الدين ، فانهم ، وانهن لايلتفتون لهذه القضية ، ربما لانه ليس فيها ما يشبع الرغبة فى التنكر لشرائع الله .

المرأة فى الريف — وبخاصة ريف الصعيد — لا تنال حقها الشرعى من ميراث أبيها أو أمها ، أو اخوتها ، واذا تطلعت واحدة الى أخذ ميراثها جرت المساومات والمشاورات ، وعقدت المجالس العرفية لغرض واحد هو أن تتنازل المرأة عن نصيبها كله ، أو بعضه ، وينتهى كل ذلك الى أن تأخذ (ترضية) قد تكون خمس حقها أو أقل ، ثم بعد ذلك يجفوها أخوتها ، ويعتبرونها خارجة عن الأسرة ، ولا فرق فى ذلك بين الاخوة الجهلة ، والأخوة المتعلمين ، وانى لأعرف من ذلك أشـياء كثيرة تدمع لها العين ، ويحزن لها القلب ، فبينما تعانى بعض النساء آلام الفاقة والحاجة ينعم أخوها فى ميراثها ، وربما كان رجلا نال من العلم والثقافة نصيبا واذا حدث واهدى لها شيئا فى المواسم والأعياد اعتبر ذلك تفضلا منه .

هذه ظاهرة لا تخفى على أحد فلماذا لا يجند المتحمسون والمتحمسات لحقوق المرأة أقلامهم ، وجهودهم لهذه القضية ؟ ولمـاذا لا يطالبون المسئولين — كما يطالبونهم بأن يحرموا تعدد الزوجات — أن يسنوا عقابا رادعا لكل من يحرم أخته من ميراثها الشرعى ؟

اننا نقرأ فى أكثر من صحيفة ، ولأكثر من كاتب اقتراحا بأن تتساوى المرأة مع الرجل فى الميراث ، ولكنا لا نقرأ اقتراحا بأن تأخذ نصيبها حين يحرمها أهلها منه .

ان فى الاقتراح الأول انكارا صريحا لآية محكمة من كتاب الله ، وفى الاقتراح الثانى تنفيذ لنص محكم من كتاب الله ، فأى الأمرين أولى بأن نقف وراءه ، وأن ندافع عنه ؟

اننا لا نريد أبدا ــ كما قلت فى مبدأ هذا الحديث ــ أن نبخس المرأة حقا من حقوقها التى شرعها لها الاسلام ، ولكننا نعارض بكل قوة أية دعوة تهدف الى أن نعارض نصا من نصوص ديننا ، ومهما كثر الداعون والداعيات الى هذا الذى نعارضه فان ذلك لا يثنينا أبدا عن أن نجهر بكلمة الدين ، وأن ندافع عنها ، وأن نبينها للنـــاس : « قـــل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

وانه لدين فى عنق كل مسلم أيا كان مكانه فى الحياة أن يدفع عن دينه كل ضيم يحاول أن يناله من هؤلاء الذين لا يبالون أين تقع معاولهم من بناء الاسلام .

***

التفسير العصري للقرآن

جلال القرآن وقدسيته ، ومنزلته المنفردة فى البلاغة والفصاحة . كل ذلك يقتضى ممن تحدثه نفسه بتفسير آياته أن يأخذ لهذا الأمر أهبته ، وأن يعد له عدته وذلك يتطلب منه أمورا كثيرة لعل من أهمها :

١ ــ علما واسعا بلغة العرب ، واحاطة شاملة بمختلفة اللهجات العربية ، وفقها واعيا لمفردات اللغة وتراكيبها .

ولذلك كان السلف الصالح ــ رضوان الله عليهم ــ يتحرجون غاية التحرج من القول فى التفسير ، فقد روى أن سيدنا أبا بكر (رضى الله عنه) سئل عن معنى كلمة (الأب) فى قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » من سورة (عبس) فأمسك عن الجواب مخافة أن يكون لهذا اللفظ معنى لا يعرفه أبو بكر وقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ان قلت فى كتاب الله برايى .

ونقل أنس (رضى الله عنه) قال : (سمعت عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قرأ هذه الآية ــ يريد الآية السابقة ــ ثم قال : كل هذا قد عرفناه . فما الأب ؟ ثم رفع عصا كانت بيده ، وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يابن أم عمر الا تدرى ما الأب ؟) .

ثم قال : (اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه) •

وكان عبد الملك بن قريب المشهور بالأصمعى — وهو من كبار رواة اللغة — يأبى أن يفسر كلمة وردت فى القرآن ويقول اذا سئل عن كلمة قرآنية : هذه فى القرآن •

وكل هذا احتياط وحذر منهم ، وأن لم يمنع ذلك من القول فى التفسير على أوسع نطاق ، غير أن هذا التحفظ من بعض الصحابة وكبار العلماء كان دائما أمام أعين المفسرين ، فكان الفذ منهم لا يشرع فى تفسير القرآن حتى يشعر من نفسه القدرة عليه ومع ذلك يتوقى بكل جهده عثرات الرأى ومزلة القـــدم •

ولقد كنت قرأت منذ زمن طويل أن (ابن الأنبارى) رحمه الله كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد على ألفاظ القرآن ، وهذا كان دأبهم جزاهم الله عن كتابه خير الجزاء فقد كان العالم منهم لا يكاد يفسر معنى الكلمة حتى يتبع تفسيره بشاهد من كلام العرب ، وأن هذا المعنى لهذه الكلمة كان معروفا عندهم •

وبسبيل من ذلك أن يكون من يتصدى للتفسير ذا خبرة واسعة ، ودراية تامة بالأساليب البيانية التى تزخر بها اللغة العربية ، فان ذلك يجنبـــه الخبط على غير هدى ويأخذ بيده فى طريق مأمون العثرات ، ومن هنا قال الامام عبد القادر الجرجانى امام البـــلاغيين يعيب على بعض المفسرين الذين

عاصروه أو سبقوا عصره : (ومن عـادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن توهموا فى الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها ، فيفسدوا المعنى بذلك ، ويبطلوا الغرض ، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف .

وناهيك اذا هم أخذوا فى ذكر الوجوه ، وجعلوا يكثرون فى غير طائل ؟

وهناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به ، ونسأل الله العصمة والتوفيق[1] .

٢ ــ حفظ القرآن الكريم ، والاحاطه بطرقه فى البيـان ودراسة السنة النبوية ومعرفة ما تضمنته من بيان للقرآن وللأحكام الشرعية .

ذلك أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ومن الخطأ أن يشرح مفسر آية فى معنى دون أن يكون على معرفة تامة بكل الآيات التى تضمنت هذا المعنى ، أو أشارت اليه . والسنة النبوية بينت كثيرا من آيات القرآن ، وهذا مصداق قوله تعالى : **« وانزلنا اليـك الذكر لتبين للنـاس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون »** .

٣ ــ القدرة على حسن اختيار الآراء ، والمعرفة بمصادر الأدلة حتى يكون ترجيح رأى على رأى سليما ومقبولا .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣٦ .

ولا حجر على أحد أن يختار ما شاء • ما دام الدليل يدعمه ، لكن الشيء الذى يبدو عجيبا أن يعمد باحث الى اختيار الرأى الضعيف فى كل مسألة يعرض لها متجاهلا ما وجهه العلماء السابقون له من نقد وتفنيد ثم يكون العجب أشد حين لا يقيم على اختياره أى دليل مقبول •

وهذا الصنيع يدلنا فى الغالب على أحد أمرين :

١ ــ أما على فقدان الثقة بجمهرة العلماء السابقين الذين قضوا أعمارهم فى معرفة لغة العرب ، ومقاصد القرآن الكريم ، واحتاطوا أشد الاحتياط فيما دونوا من آراء •

٢ ــ واما على شهوة خاصة تحمل مثل هذا المعرض عن الصحيح من الآراء على أن يظهر بمظهر المخالف لما اتفقت عليه كلمة جمهرة العلماء والباحثين • ومن شيمة العلماء أن يعترفوا لغيرهم بالفضل ، وأن يطلبوا الحق حيث وجدوه ، والا يعرضوا عن الرأى المدعم بالأدلة ويعتنقوا الرأى الذى لا يقوم عليه دليل ، وأن تكون الحكمة ضالتهم يبحثون عنها ، ويجهدون فى سبيل الوصول اليها •

وقد روى عن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : والذى لا اله الا هو ، ما نزلت آية فى كتاب الله الا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته •

فما بالنا نرى أناسا ليسوا على علم بكتاب الله ، ولا يكادون

يعرفون فى آية واحدة فيمن نزلت وأين نزلت ، وبين أيديهم كتب التفسير المنقول والمعقول تسول لهم أنفسهم أن يعرضوا عن كل ذلك ، ويحبون أن يظهروا أمام القراء بأنهم أعلم بكتاب الله من كل من سبقوهم ؟

من الممكن أن يضيف المفسر العالم الى ماذكره المتقدمون فهما جديدا لآية من الآيات ، ولكن البعيد أن يخطىء جمهرتهم فى فهم آية كثر الجدل والنقاش حولها ، وكان ما تضمنته من المسائل الأصلية فى الاسلام كمسألة الجنة والنار — مثلا — أو كمسألة الحلال والحرام •

ولست أريد بذلك أن أدعو الى الوقوف عند كتب التفسير المعروفة ، والتى كتبها أفاضل العلماء فى القديم ، ولا أن أصد أحدا عن التطلع للتفسير ، بل انى أريد أن أدعو كل مسلم تحفزه همته الى هذا العمل أن يتبين أولا : هل هو من رجاله ؟ عليه أن يعرف مدى المامه بلغة العرب ، ومدى فهمه لأسرارها وتذوقه لأساليبها ، ومدى معرفته بالسنة النبوية ، وأن يضع أمامه — دائما — قول النبى صلى الله عليه وسلم **(من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)** •

كما أنى لست أقصد بهذا الكلام انسانا بعينه بل انى — دون مواربة — أقصد الجم الغفير ممن فسروا القرآن فى عصرنا الحاضر حتى أولئك الذين يرفعهم بعض الناس الى مرتبة الاجتهاد ، فانى عرفت بعضهم وقرأت عن بعض آخر فلم أجد عندهم من عدد التفسير الامعرفة يسيرة بلغة العرب ،

تتضاءل أمام ما كان عليه أولئك المفسرون القدامى من أمثال الفخر الرازى والزمخشرى وغيرهما ، ووجدت عند بعضهم من الجرأة على كتاب الله ما ضل به وأضل •

وربما قيل أنك هولت فى الأمر ، وأن القرآن نزل بلسان عربى مبين ، وأنه لا يحتاج فى تفسيره الى أكثر من الالمام اليسير بلغة العرب ، واقول كما قال البوصيرى : (ومن شدة الوضوح الخفاء) نعم • ألفاظ القرآن عربية واضحة ، ولكن مقاصد القرآن تحتاج فى الوصول اليها الى دراسة واسعة لهذه الألفاظ ، والى أفهام ثاقبة ، والى ما قدمت الحديث عنه ، ثم من الألفاظ ما وضع لاكثر من معنى واحد فكيف يدرك المراد منه من لم يكن عارفا بلغات العرب ؟

بعد كل هذا أرى من الواجب أن أعرض لأبحاث نشرتها بعض المجلات المصرية تناول فيها الكاتب تفسير بعض الآيات القرآنية ، وذكر أنه يقوم بمحاولة لتفسير عصرى للقرآن •

وقد اختلفت الآراء عند ما بدأ الكاتب ينشر هذه الأبحاث فقال قائلون : انه ينبغى السكوت عنها ، وأن من الضرر البالغ الرد عليها ومناقشتها ، ذلك أنها بعثت بعض آراء قديمة ماتت، ولم يعد أحد من المسلمين يدين بها ، وفى الجدل حولها ما يذكر المسلمين بها ، وهم فى غنى عن بلبلة الأفكار ، وزعزعة العقيدة •

وقال آخرون : هذا حق ، ولكن بعض الناس ممن ضؤلت ثقافتهم الدينية أخذوا يدينون بها ، بل بعضهم جعل يبشر بها

ويشيد بكاتبها فمن الواجب أن يبين للناس مدى صحة هذه الآراء ومدى ضعفها .

حقيقة قد أقيمت الأدلة الكثيرة فى الماضى على بطلانها ، ولكن الكاتب لم يقتصر على بعث هذه الآراء بل جعل يضيف اليها حواشى توهم الناس أن لهذه الآراء نصيبا من الصحة .

قال هؤلاء : وربما كان فى سكوت العلماء عنها ما يؤكـد صحتها .

وقد ملت الى هذا الرأى فكتبت هذه الكلمات ، وقبل أن أتناول ما سطره الكاتب أود أن أقول اننا لا نحاول أن نحد من حرية أحد ولا أن نسىء الى أحد وانما نريد النصيحة للمسلمين، فأما الكاتب فأمره الى ربه ، فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهو الذى يقول فى محكم كتابه : « **وأن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** » ، ورسوله الكريم يقول : (**انما الاعمال بالنيـات وانما لكل امرىء ما نوى**) .

لقد وقفت طويلا عند تفسير لقوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون ... الآية » وعجبت لأمور :

أولها : أن الكاتب حمل الآية بادىء بدء ــ على التشبيه ، ولكنه لم يذكر لنا أين المشبه به ؟ ويبدو أنه لم يدر بخلده ان هنا مشبها به .

ودليلنا على أنه أراد التشبيه أنه نظر ما فى الآية بما يقوله

الرجل لطفله الذى يسأله عن اللذة الجنسية ، بعد أن يعجز عن توصيل المعنى اليه ، فيقرب اليه الأمر على سبيل ضرب المثل ويقول : انها شيء مثل السكر •

ان جمهرة المفسرين يقولون ان (المثل) هنا معناه الصفة أى : صفة الجنة التى وعد المتقون كذا وكذا •

وبعضهم حاول أن يقدر فى الآية تشبيها ، وذكروا فى ذلك وجهين :

الأول : عن الزجاج حيث قال : (مثل الجنة جنة تجرى فيها أنهار كما يقال : مثل زيد رجل طويل أسمر ، فيذكر عين صفات زيد فى رجل منكر لا يكون هو — فى الحقيقة — الا زيدا) •

والثانى : عن الزمخشرى فهو يرى أن الممثل به مذكور حيث قال : كمن هو خالد فى النار ، مشبه به على طريقة الانكار ، وعبارته : (كأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد فى النار أى : كمثل جزاء من هو خالد فى النار ••• هو كلام فى صورة الاثبات

ومعنى النفى والانكار ، ونظيره قول القائل :

أفرح أن أرزأ الكرام وأن   أورث ذودا شصائصا نبلا

هو كلام منكر للفرح برزيئة الكرام ، ووراثة الذود مع تعريه عن حرف الانكار ومثل الجنة صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ وخبره كمن هو خالد •

وقد علق عالم من علماء أهل السنة عرف بتتبعه لآراء الزمخشرى وردها علق على هذا التفسير بقوله : قال أحمد —

هو قاضي الاسكندرية المتوفى سنة ٦٨٣ هـ المعروف بابن المنير :
(كم ذكر الناس فى تأويل هذه الآية فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التى ذكرها) .

أما الأمر الثانى : ـ وهو أمر لا يكاد العجب منه ينقضى ـ فهو ان الكاتب لم يعرض لأى آية أخرى فى القرآن جاء فيها وصف الجنة ونعيمها ، بل اقتصر على هذه الآية التى جاءت فيها كلمة (مثل) ليصح له أن يقول ان المسألة مجرد ضرب مثل . وكل نصيب الآيات الأخرى منه اشارة عابرة وان كانت واضحة الدلالة ، يقول فيها : (وكل ما جاء فى الجنة والجحيم ألوان من ضرب الأمثال ، وألوان من التقريب وألوان من الرمز) وهو كلام ملقى على عواهنه ، لا يسنده أى دليل ذلك ان جميع العلماء متفقون على أنه اذا أمكن الكلام على الحقيقة لا يعدل عنها الى المجاز ومعروف كذلك أن كل مجاز لابد له من قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقى .

وفى القرآن الكريم عشرات الآيات فى وصف الجنة والنار ، وهى آيات صريحة لا لبس فيها ولا غموض ، وليست فيها أية قرينة تصرفها عن معانيها الحقيقية ، نأخذ ـ مثلا قوله تعالى ـ **« وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون »**(1) **وقوله سبحانه : « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها**

---

(1) الزخرف ٧٢ ، ٧٣ .

ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون »[٢]

وقوله تعالى فى وصف النار : « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » وقوله سبحانه : « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » .

الى آيات كثيرة تشبه هذه الآيات فى وضوح الدلالة وصراحة العبارة ، فما الذى يحملنا على أن نتعسف فى تفسير اللغة ، ونجعل من الواضح الجلى رمزا وايماء ، وندعى أن ذلك من قبيل ضرب المثل ، بل مجرد ضرب مثل ، وليس فى كل هذه الآيات اشارة واحدة من بعيد أو من قريب تسمح لنا بهذه الدعوى ؟

ولكن الكاتب قد أجاب عن هذا السؤال ، فقال : (هذا أمر مستحيل لأن الجنة والجحيم أمور غيبية بالنسبة لنا لا يمكن تصويرها فى كلمات من قاموسنا) فليست هذه — اذن — أوصافا حرفية لأن هذا مستحيل .

والعجيب من الكاتب : أليس فى مقدور الله ، أن يصف لنا

---

(٢) الواقعة ١٥ — ٢٤ .

الأمور الغيبية بكلماتنا هذه القاموسية ؟ أكل غائب عنا عجز القرآن عن تصويره بكلماتنا ؟ واذا كان القرآن صور لنا ـ فعلا ـ هذه الغيبيات ، بألفاظ واضحة نفهمها ، فهل من مقتضيات فلسفتنا أن نقول له انك عجزت عن هذا التصوير واننا سنتبرع لك من عندنا فنفهم انك تقصد الرمز والايماء ؟

اننى أترك لأى قارىء أن يحكم على هذا الصنيع وسيجد أن الكاتب قد ألغى دلالات اللغة الأصلية ، وقد فتح بابا واسعا للادعاء ، ولحمل كل لفظ على ما يريد أن يفهم ، ولو أبحنا ذلك لمجرد هذه الحجة لما استطعنا أن نؤمن بقضية غيبية على حقيقتها •

ان فى الجنة انهارا من لبن ، وأنهارا من عسل مصفى ، وأنهارا من خمر لذة للشاربين ، أليست هذه كلمات واضحة ، وعبارات سليمة لا غموض فيها ؟ أيكون فى الايمان بما تدل عليه ما يتنافى مع العقيدة الصحيحة للمسلم ؟ أينقص من قدر ثواب المؤمنين أن يجدوا فى الجنة هذه الأنهار ؟

لا أظن شيئا من ذلك يطوف بخلد أحد ممن يؤمن بالله ورسوله وبالحشر والجنة والنار ، واذا كان الله سبحانه أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ كما جاء فى الحديث الصحيح ـ فان وراء هذه الأنهار ، وهذه النعم الحسية ذلك الذى أعده الله ، ولا تنافى بين ما بينه

الله فى القرآن من ألوان النعيم وبين ما أعده من نعم أخرى لم تخطر على قلب بشر .

والعجيبة الثالثة التى جرت على قلم الكاتب — ولست أظن أنه ألقى اليها بالا — : ما جاء فى تعليقه على قول الله تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون[1] » .

من قوله : (ها هو ذا يبين حقيقة جديدة ، فيقول انه يورد الألفاظ للتخويف) ويكرر هـذا فى موضع آخر فيقول عن الله سبحانه : « فقد حذرنا وخوفنا بالألفاظ المجلجلة » .

واذن فهى مجرد ألفاظ ، لا حقائق وراءها ، وهذا غاية مانعيب به انسانا مثلنا أن يهددنا بالألفاظ التي لا يحقق شيئا من معانيها ، والله سبحانه قد أنكر على المؤمنين الذين يقولون مالا يفعلون : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون[1] » وليس يشفع للكاتب أن يقول بعد ذلك ان التخويف ليس على غير أساس فيكفى أن ينسب الى الله سبحانه أنه يخوف بالألفاظ المجلجلة ؟

ولماذا لا يخوفنا الله بما تدل عليه هذه الألفاظ ؟ وهو الأمر الطبيعى المعقول ، ليكن ما يلقاه الناس يوم القيامة أشد هولا مما تضمنته هذه الآية ، ولكن ما جاء فيها أمر رهيب حقا ، وما وراءه من أنواع العذاب تضمنته آيات آخر .

---

(١) الزمر ١٧ .
(٢) الصف ٢ ، ٣ .

والكاتب — فيما يبدو من كلامه — يؤمن بالحشر الجسماني واذا كان كذلك فلابد أن يكون المؤمنون في مكان والكافرون في مكان آخر ، وبطبيعة الحال سيكون مكان المؤمنين مريحا ، ومكان الكافرين متعبا ، والقرآن الكريم قد وصف لنا المكانين ، وعلينا أن نؤمن بهذه الأوصاف لأننا لو فهمناها على أنها رموز لحالات نفسية كان علينا أن نتصور صفات لهذه الأمكنة ، ضرورة أنه لابد لكل مكان من صفة ، وحينئذ سنترك ما وصف به القرآن الأرض التي يحشر كل من الفريقين عليها ، وتخيلنا لها أوصافا من عندنا وليس وراء ذلك عبث •

ثم ان الكاتب تبع بعض الكاتبين الآخرين في ادعاء أن الله سبحانه لما كان يخاطب (البدوى البسيط) الذى كل أمنيته — وهو يعيش في هجير الصحراء — ان يعثر على نبع ماء عذب ، كان يعده جنات تجرى من تحتها الأنهار •

كأن القرآن الكريم لم ينزل الا لهذا البدوى البسيط ، وكأن الماء لا قيمة له الا عند من يعيشون في هجير الصحراء ، وأخيرا كأن القرآن (يتملق) هؤلاء البدو ليؤمنوا بالرسالة الجديدة •

ان القرآن الكريم أنزل على نبى عربى ، ولكنه سيبقى خالدا يخاطب جميع الأمم وجميع الأجناس حتى الذين يعيشون في جزر وسط الأنهار العذبة ، وان الماء حياة كل شيء كما جاء في القرآن الكريم ، فليست حاجة البدوى اليه بأمس من حاجة غيره ، واذا

تصورنا أن البدوى سيكون شديد الحاجة للماء فى الدار الآخرة فنحن لم نفقد هذا التصور بالنسبة لأى انسان آخر .

والكاتب يعتبر الأنهار من العسل ، والأنهار من الخمر (سذاجات) لأنه يقول انه فهمها كذلك فى شبابه ، ولكن حين كبر أدرك أن المراد الرمز والايماء ومعنى ذلك أن كل من يفهمها على أنها حقائق انسان ساذج ، وكفى بذلك ضياعا .

ويتمسك الكاتب بقول الله تعالى فى أهل النار : «لكل ضعف» مدعيا أن ذلك من الأدلة على أن النار ليست هى النار اذ : (ان أمامنا اثنين يتعذب الواحد منهم ضعف الآخر ، مع أنهما فى نفس المكان ، ومعنى هذا أن العذاب فى القلب وليس فى المكان) .

فالكاتب لا يتصور أن يكون اثنان فى مكان واحد ، ويتعذب أحدهما ضعف الآخر ، مع أنه فى نفس المكان يتصور وقوع حوار بين أهل النار ، ويقول : (وفى مثل نارنا لا يمكن أن يجرى حوار بين اثنين يحترقان) واذن فنار الآخرة غير نارنا ، والكاتب يعترف بأنه سيكون فيها مالا نتصوره فى نارنا ، فهل يبعد أن يتعذب اثنان عذابين مختلفين فى مكان واحد منها ؟

ثم من قال ان الجميع فى مكان واحد ؟ وأن النار دركات وليس من العسير أن يقع حوار بين قوم فى دركة ، وآخرين فى دركة أخرى ، والقرآن الكريم يحدثنا أنه سيكون حوار بين أهل الجنة وأهل النار .

على أننا نتصور — وبكل وضوح — أن يكون اثنان فى مكان واحد ، ويشعر أحدهما بالعذاب ضعف شعور الآخر به ، كمـا نتصور حوارا يقع بين اثنين يعذبان ، يشكو أحدها شدة العذاب فيجيبه الآخر بأنه هو الذى أسرف على نفسه فى الدنيا ، فاستحق هذا العذاب فى الآخرة . وكيف ينكر مسلم هذا الحوار ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ان ذلك لحق تخاصم أهل النار » . نسـأل الله سبحانه أن يجنبنا الزلل .

* * *

من إعجاز النظم القرآنى

فى العدد ١٩٣ من مجلة (المجتمع) التى تصدر بالكويت نشر بحث بعنوان : (من اعجاز النظم القرآنى فى شهادة شاهدى الميت المغترب) تناول فيه الكاتب بالتفسير والتعليق قوله تعالى : «ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية إثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين فان عثر على أنهما استحقا اثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا انا اذا لمن الظالمين ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين(١) .

ومع ما أعرفه من حسن قصد الكاتب الفاضل ومع ما يبدو فى بحثه من محاولة اثبات الاعجاز لهذه الآيات بسبب مواءمة

---

(١) سورة المائدة ١٠٦ — ١٠٨

ألفاظها للقضية التي تتحدث عنها ... أرى لزاما على — وفاء بحق كتاب الله تعالى — أن أقف معه وقفة متأنية فى موضعين :

الأول : وصفه لهذه الآيات الكريمة .

الثانى : منهجه فى تفسيرها .

أما عن الأول فقد وصف الأيات الكريمة بهذه الأوصاف :

١ — قد كثر فيها الخروج على مألوف النظم القرآنى خروجا متعمدا . فهناك تقديم وتأخير بحيث تبدو الجمل وكأنما يدفع بعضها بعضا ليزيله عن موضعه قسرا .

٢ — ثم هناك هذا العسر الشديد فى النطق بالكلمات ، شدها الى اللسان ، وجمعها عليه .

٣ — ونقرأ الآيات مرة ومرة فاذا هى كعهدنا بها تتأبى على اللسان وتكاد تمسك به .

ولا يشفع له أنه قال بعد هذه الفقرات اننا حين نقرؤها ترتيلا نجد (كلماتها متناغمة يأنس بعضها ببعض ، ويتجاوب بعضها مع بعض ، واذا هى لينة اللمس عذبة المذاق ، واذا هى على الأذن لحن موسيقى علوى النغم ، يهز القلب ويمسك بمجامعه) .

أقول : لا يشفع له هذا لأن هدفه الذى يريد الوصول اليه هو اثبات المناسبة التامة بين نظم هذه الآيات وبين ما تعالجه من موقف غريب مضطرب . وهذه الأوصاف الأخيرة تنقض عليه غرضه ، ولذلك نجده يقول بعد ذلك :

(ومن أجل هذا أيضـــا كان تنازع الكلمات القرآنية فيمـــا

بينها حتى لكأنها هى هذه الجهات المتنازعة المتخاصمة فى مسارب نفوسها ، وفى مجرى خواطرها) .

فنرى أن الكاتب لم يترك صفة من الصفات التى تخل بفصاحة الكلام الا كاد يثبتها ويؤكدها ولو كان ينظر الى ما وصفها به عند الترتيل ما قال شيئا من ذلك بل وما تحقق له هذا الذى يجرى جاهدا ليدركه .

فالآيات على غير مألوف النظم القرآنى ، فيها من التقديم والتأخير ما يجعل الجمل يدفع بعضها بعضا والكلمات متزاحمة متواكبة ، وهى تشبه فى اضطرابها هذا الاضطراب فى النفوس المتخاصمة المتنازعة .

وكنت أود أن يراجع الكاتب ما أجمع عليه علماء البلاغة من أن تنافر الكلمات يخل بفصاحة الكلام ، ومن ثم يخل ببلاغته ، وان معنى هذا التنافر هو ثقل الكلمات على اللسان وعسر النطق بها ، وانه من الخطأ والخطر أن يوصف كلام ، بل كلمة فى القرآن الكريم بعدم الفصاحة .

وقد يقول الكاتب ان المتقدمين أفردوا هذه الآيات بوصف مما يدل على أن لها فى حكمها ومعناها ونظمها شأنا خاصا . ومن ذلك — مثلا — ما روى المفسر الواحدى فى (البسيط) من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه — : هذه الآيات أعضل ما فى هذه السورة من الأحكام .

وقد ذكر صاحب (البحر المحيط) وغيره عن على بن مكى قوله : (هذه الآيات عند أهل المعانى من أشكل ما فى القرآن اعرابا ومعنى وحكما) .

وجاء فى كلام الفخر الرازى ــ وعنه نقله بعض المفسرين ــ قوله : (اتفق المفسرون على أنها فى غاية الصعوبة اعرابا ونظما وحكما ... فنقول للكاتب الفاضل :

أولا : لم يقل أحد من هؤلاء ولا من غيرهم أن الآيات عسيرة النطق على اللسان ولا أن كلماتها يدفع بعضها بعضا ليزيله عن موضعه قسرا .. ولا انها خالفت المألوف من نظم القرآن تعهداء

ثانيا : مع أن (ابن مكى) قال هذه الآيات من أشكل ما فى القرآن فجعلها بعض ما فى القرآن من الآيات التى تتصف بأنها (أشكل) أى لم يجعلها منفردة بهذا . أقول : مع ذلك رد عليه المفسر الأندلسى (ابن عطية) فقال : (هذا كلام من لم يقع له الثلج فى تفسيرها ، وذلك بين من كتابه (يريد كتاب على بن مكـــى) .

ثالثا : لا أدرى كيف قال الرازى : (اتفق المفسرون) مع أن من المفسرين الذين سبقوه من لم يقل ذلك .

رابعا : ننقل هنا ما قاله الشيخ رشيد رضا فى تفسيره (المنار) مع مافيه من الطول لعل فيه مايوجه الى الصواب . قال الشيخ رشيد ــ بعد أن أشار الى هذه الأقوال التى نقلناها ــ : (نحن لا يروعنا ما يراه المفسرون من الصـــعوبة فى اعــراب بعض الآيات أو فى حكمها . لأن لهم مذاهب فى النحــو والفقه يزنون بها القرآن فلا يفهمونه الا منها ، والقرآن فوق النحو والفقه والمذاهب كلها ــ فهو أصل الأصول . ما وافقه فهو مقبول وما خالفه فهو مردود مرذول ، وانما يهمنا ما يقوله علماء الصحابة والتابعين فيه ــ فهو العون الأكبر لنا على فهمه ، ولم يرو عن

أحد منهم ما يدل على وجدان شيء من الصعوبة في عبارة الآيتين، وما نقله الواحدي عن عمر — رضي الله عنه — في آية : « فان عثر » فليس مما يؤيد ما نقل عن المفسرين من استصعابها ، بل معناه أن أحكامها أشد من سائر أحكام السورة ولعله يعني بذلك ما فيها من التضييق في رد ايمان بعد ايمان واظهار فضائح من كذب وخان قال في الأســـاس : (عضلت على فلان : ضيقت عليه أمره وحلت بينه وبين ما يريد ، ومنه النهي عن عضل النساء أي منعهن من الزواج) .

خامسا : لم تخالف هذه الآيات في أي جزء من أجزائها المألوف من نظم القرآن الكريم فالفصل — مثلا — بين شيئين متلازمين ورد في القرآن الكريم كثيرا . من ذلك قوله تعالى : « كتب عليكم اذا حضر أحــدكم المــوت ان تــرك خيرا الوصــية للوالدين والأقربين[1] » فقــد فصــل بــين الفعل ونائب فاعله بكلمات أكثر عددا من الكلمات التي تفصل بها بين المبتدأ وخبره في آيات المائدة التي معنــا .

ومن ذلك قوله تعالى — في سورة النساء :

« ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما[2] » .

فقد فصل بين القول ومقوله بست كلمات .

وقوله — سبحانه — في نفس السورة :

---

(١) سورة البقرة ١٨٠ .
(٢) الآية ٧٣ .

« ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم[1] » •

فقد فصل بين اسم لا وخبرها بتسع كلمات ، فى حين أن الفصل بين المبتدأ والخبر فى آيات المائدة بست كلمات فقط • وقوله عز وجل فى أوائل سورة المائدة :

ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا[2] » •

والفصل ظاهر • وفى قراءة سبعية جاء قوله تعالى :

« وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم » • بنصب أولاد ، وجر شركاء ، على أن قتل مضاف وشركائهم مضاف اليه • وهكذا •

أما الضمائر التى تصلح أن تعود الى أكثر من شىء واحد ، والضمائر التى يفهم ما تعود اليه من السياق فكثيرة فى القرآن الكريم •

وكل ذلك جائز بل وكثير فى كلام العرب •

وليس شىء من ذلك غريبا حتى يقول الكاتب : (بعد هذا النداء يلقاك المبتدأ « شهادة بينكم » ثم تلقاك هذه الجملة المعترضة ــ اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية ــ ، وبعدها يلقاك الخبر « اثنان » ولا تكاد تتبينه الا بعد معاودة الفكر وترداد النظر) •

---

(1) من الآية ١٠٢ •
(٢) من الآية ٢ •

ومن هذا الذى يخاطبه الكاتب بقوله : « ولا تكاد » هل عربي يفهم العربية أو أعجمى يجهلها ، أو رجل من عامة الناس ؟

والصنفان الثالث والثانى لا شأن لنا بهما ، ولا ننتظر منهما أن يفهما أين المبتدأ وأين الخبر . وأما الأول وهو الذى يفهم العربية — فانه يتبين المبتدأ والخبر دون معاودة الفكر وترداد النظر ، وحين نقول : « يفهم العربية » لا نريد كل من له أدنى تحصيل من مفرداتها وتراكيبها وانما نريد الذين خاطبهم القرآن أولا وهم العرب الخلص . ثم الذين جاءوا من بعدهم ودرسوا العربية وتدارسوها وحصلت لهم ملكات فيها . فليس للكاتب ولا لنا أن نحكم على كلام عربى بله القرآن الكريم بأنه ثقيل على اللسان ، فاذا كان من كبار العلماء فى القرن الثانى الهجرى من يصرح بأنهم بعدوا عن اللغة التى نزل بها القرآن فكيف بنا ، ونحن فى القرن الرابع عشر ؟؟

* * *

أما عن الموضع الثانى وهو منهجه فى التفسير فنسير مع الكاتب خطوة خطوة :

١ — ابتدأ باعراب بعض الكلمات ، فقال : « اثنان » هو خبر المبتدأ « شهادة بينكم » ولا بأس بهذا الاعراب ، ولكن كان على الكاتب أن يبين أن هذا الاعراب لا يصح الا بتقدير أو تأويل فيكون تقدير الكلام — مثلا — شهادة بينكم شهادة اثنين لأن (اثنان) لا يكون خبرا عن شهادة ، وهو مصدر ، الا بمثل هذا التقدير ... أو بالتأويل على حد (رجل عدل) وقال تحبسونهما « صفة ثانية لقوله تعالى » اثنان وأكثر المفسرين على انه

(استئناف) وبعضهم بل أكثرهم قال انه صفة (آخران) قال الزمخشرى : (الاستئناف أظهر من الوصف لطول الفصل بالشرط والمعطوف عليه بين الموصوف وصفته .

ولأن الكلام على القول بأنه صفة لـ (اثنان) أو لـ (آخران) يؤول الى : فآخران شأنهما الحبس والتحليف .

ــ كما قال المفسر الالوسى .

والخطب فى الاعراب يسير ، ولكنى نبهت على ذلك لأشير الى أن المنهج الذى سار عليه الكاتب يبدو واضحا فيه حرصه على أن يخالف ما رجحه القدماء ، وكما سيتضح مما يلى :

٢ ــ يقول الكاتب : (هو تشريع للمؤمنين فيما يواجهون به موقفا كهذا الموقف وهو موت أحدهم ، وهــو يضرب فى الأرض بعيدا عن أهله وذوى قرابته ، ففى تلك الحال ينبغى أن يتخير المحتضر شاهدين يتوسم فيهما الأمانة والاستقامة ثم يدعوهما اليه ويفضى اليهما بما يريد أن يوصى به أهله فيما خلفه وراءه من شــئون) .

ولا يزيد على ذلك . ثم يقول فى موضــع آخــر معقبا على تساؤلات الفقهاء والمفسرين حول موقف الشاهدين ، يقــول : (وهذا التخريج للآية الكريمة على هذا الوجه غير صــحيح ، فالمفروض فى الشاهدين أنهما ذوا عدل) .

وبكل ذلك يهمل الكاتب جانبا هاما من هذه القضية ، فالمحتضر يتخير شاهدين ذوى عدل فاذا لم يجد من يشهده من ذوى العدل أشهد من حضره وقد اختلف العلماء فى تفسير قوله تعالى : « من

غيركم » فقال عامة المفسرين ـ كما ذكر الرازى ـ أن الشاهدين الآخرين من غير المسلمين ، وغير المسلمين لايوصف بالعدالة وان ذلك جائز فى السفر خاصة بنص هذه الآيات . ثم قال الرازى : وأجمع المسلمون على آن الشاهد المسلم لا يجب عليه الحلف .

فالمحتضر لا يستطيع آن يتخير الشاهدين فى كل الأحوال بل يشهد من حضره سواء تحقق فيه العدالة أو لم تتحقق لأنه لايجد حتى يتخير . وقديما قال العرب : (من أخصب تخير) . والمحتضر فى الغيبة قد يكون مجدبا ، فربما لا يجد أحدا من ذوى قرابته ولا من المسلمين الأجانب عنه

ومما يدل على ن المراد بالآخرين من غيركم ، شاهدان من غير المسلمين : ان المفسرين اتفقوا ـ كما قال الرازى ـ على أن هذه الآيات نزلت فى تميم الدارى وعدى بن زياد حين مات بديل بن أبى مريم وأشهدهما على ما معه وتميم وعدى لم يكونا مسلمين فى ذلك الوقت ، قال ابن عطية : ولا نعلم خلافا فى أنهما كانا نصرانيين وقد أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ باستحلافهما حين نزلت هذه الآيات .

ورأى بعض المفسرين أن (الآخرين) يكونان من غير الأقارب ، أى من المسلمين ولكنهم من غير الأقارب واختار جماعة من المتأخرين الرأى الأول حتى قال الجصاص ان التفسير الثانى لا وجه له لأن الخطاب توجه أولا الى أهل الايمان فالمغايرة تعتبر فيه ولم يجر للقرابة ذكر .

وقد قال بعض المفسرين أن المؤمنين فى ذلك الوقت ـ أى وقت نزول الآيات لم يكونوا فى غير المدينة « فدلت الآية على

أن للمحتضر أن يشهد اثنين من غير المسلمين وأقرت فعل بديل ابن أبى مريم •

قال الفخر الرازى : (فالمسلمان العدلان صالحان للشهادة فى الحضر والسفر وهذا قول ابن عباس وأبى موسى الأشعرى وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وشريح ومجاهد وابن جرير •

قالوا : اذا كان الانسان فى الغيبة ، ولم يجد مسلما يشهده على وصيته جاز له أن يشهد اليهودى أو النصرانى أو المجوسى، وعابد الوثن أو أى كافر كان وشهادتكم مقبولة ولا يجوز شهادة الكافرين على المسلمين الا فى هذه الصورة •

كل هذه الأقوال وهذه الحجج تجاهلها الكاتب ، وكأن أحدا لم يقلها ثم أخذ يعيب على الفقهاء والمفسرين تساؤلاتهم ، ويصفها بأنها (ضرب من المماحكة) وهى من (قبيل الرياضة الذهنية) •

وأحب هنا أن أوجه نصيحة — اذا سمح لى الكاتب الفاضل — لكل من يتصدى للبحث فيما تناوله الأقدمون : فأقول : ليس الطريق فى الوصول الى الرأى الصحيح هو رد آراء الآخرين دون بينة وبرهان • ولا سيما آراء كبار العلماء من فقهاء ومفسرين وبخاصة اذا كان الحق واضحا فى جانبهم وان اهمال الآراء على هذه الصورة التى رأيناها عند الكاتب دون ابداء أى سبب لهذا الاهمال ظلم لهؤلاء العلماء وظلم النص نفسه الذى تناولوه بالتفسير ولا حرج على أى باحث أن يختار ما يشاء من آراء ولكن بشرط أن يقول للقارىء لماذا اختار هذا الرأى ، وما وجه اعراضه عن الرأى الآخر ، أما أن يختار الباحث الرأى

المرجوح ، ويترك الرأى الراجح الذى قامت عليه أدلة قوية دون أية حجة مقنعة فذلك مالا يقبل فى شريعة البحث العلمى •

٣ ــ ذكر الكاتب أنه اختلف فى (الصلاة) التى يحبسان بعدها أهى صلاة العصر أم صلاة الظهر ثم قال : (والرأى أنها أى صلاة) حيث أطلق القرآن ذلك ولم يقيده هكذا بكل بساطة ويسر صار (الرأى) عند الكاتب أنها أى صلاة وقد قال بذلك بعض المفسرين ، فاذا ليس هو (الرأى) عند الكاتب ، ولكن لماذا رجح الكاتب هذا الرأى ، بل جعله الرأى الذى لا رأى غيره مع أن هناك شواهد كثيرة دلت على أنها (صلاة العصر) •

فالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين فصل فى قضية بديل ، وهى التى كانت سبب النزول أمر باستحلاف الشاهدين بعد صلاة العصر ، وكذلك فعل أبو موسى الأشعرى حين رفعت اليه قضية مماثلة • ولا نحجر على أحد أن يقول واثقا أو غير واثق (والرأى) ولكن نلزمه حينئذ ــ كما قلت ــ أن يفند آراء القائلين بالرأى المخالف ولا سيما اذا كان الرأى الذى خالفه هو الرأى الراجح عند العلماء •

ونحن ننقل هنا ما قاله شيخ المفسرين (ابن جرير الطبرى) لعل فيه ما يقنع بأن الصلاة فى الآية ليست مطلقة ، قال هـذا المفسر الكبير : (وأولى القولين فى ذلك بالصواب عندى قول من قال : تحبسونهما من بعد صلاة العصر ، لأن الله تعالى عرف (الصلاة) فى هذا الموضـع بادخال الألف واللام فيها ولا تدخلها العرب الا فى معروف ، اما فى جنس ، أو فى واحد معهود معروف عند المتخاطبين فاذا كان كذلك ، وكانت الصلاة

فى هذا الموضع مجمعا على أنه لم يعن بها جميع الصلوات لم يجز أن يكون مرادا بها صلاة المستحلف من اليهود والنصارى ، لأنهم لهم صلوات ليست واحدة فيكون معلوما انها المعنية بذلك فاذا كان ذلك كذلك صح أنها صلاة بعينها من صلوات المسلمين ، واذا كان ذلك كذلك ، وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — صحيحا عنه أنه لاعن ، بين العجلانيين بعد صلاة العصر ، دون غيرها من الصلوات كان معلوما أن التى عنيت بقوله « تحبسونهما من بعد الصلاة » هى الصلاة التى كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتخيرها لاستحلاف من أراد تغليظ اليمين عليه • هذا مع ما عند أهل الكفر بالله من تعظيم ذاك الوقت ، وذلك لقربه من غروب الشمس) •

فابن جرير رجح ، واستدل بدليل لغوى وبدليل نقلى هو فعل النبى — صلى الله عليه وسلم — مع العجلانيين وأشار كذلك الى تعظيم المستحلفين من اليهود والنصارى لهذا الوقت • ولكن الكاتب اكتفى بكلمة واحدة هى أن الصلاة فى الآية مطلقة • وقد رد الطبرى القول بالاطلاق ، فكان على الكاتب لو أراد الاقناع برأيه أن يفند ما قاله الطبرى وغيره ؛ مع العلم بأن هذا قول الجمهـور •

فاذا أضفنا الى ذلك ماكان من النبى — صلى الله عليه وسلم — عندما نزلت الآية ، وما فعله أبو موسى الأشعرى — رضى الله عنه — وما روى عن سعيد بن جبير وقتادة من أن الاستحلاف يكون بعد العصر ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم : من حلف على يمين كاذبة بعد العصر لقى الله وهو عليه غضبان ، مما يدل

على أن هذا الوقت كان وقت الاستحلاف ، وما قاله الزمخشرى من أن صلاة العصر كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها ، وأن ذلك أغنى عن التقيد .

أقول : اذا أضفنا كل ذلك الى ماقاله الطبرى لم يخامرنا شك فى أن الكاتب حينما قال : (والـرأى) لم يكن منصـفا لهؤلاء العلماء ، بل لم يكن على المنهج الصحيح فى قبول بعض الآراء ورفض بعض آخر منها .

٤ ـ قال الكاتب : (لانذهب فى فهم الآية الكريمة الى ماذهب اليه المفسرون من أن حبس الشاهدين بعد الصلاة ، وتوجيه اليمين اليهما انما يكون ذلك عند الارتيـاب فى شهادتهما . فان حبسهما بعد الصلاة وقبل أداء الشهادة هو الاجراء المطلوب على كل حال سواء وقع فى نفس أهل المتوفى ارتياب أو لم يقع فذلك التدبير من أداء الشهادة بعد الصلاة مما يدخل الطمأنينة فى النفوس ، ومما يقيم فى نفس الشاهدين وازعا يزعهما عن الانحراف فى الشهادة على وجهها كما يقول سبحانه :

« ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها » .

وأول ما نلاحظه أن الكاتب أوهم القراء أن المفسرين جميعا قالوا ان الحبس لايكون الا بعد الارتياب وأنه ـ وحده ـ يقول بخلاف ذلك ـ أى برأى جديد مع أن من المفسرين من قال به .

والمسألة ترجع الى احتمال لغوى لا مناص من الاعتراف به ، ولا يمكن تجاهله بل لا يمكن تجاوز رأى ما الا اذا اقيم دليل على أنه غير صالح بدليل وحجة .

الآية الكريمة تقول :

« تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم » .

فهناك شرط مؤخر تقدمه فعلان يصلح الثانى منهما أن يكون دليل الجواب ويصلح الأول معطوفا عليه . الثانى أن يكونا دليلى الجواب ، فعلى التقدير الأول : أن ارتبتم يقسمان بالله ، التقدير الثانى : ان ارتبتم فاحبسوهما فيقسمان بالله وهذا كما قلت صنيع لغوى لا سبيل الى انكاره أو تجاهله .

وقد قال بالأول بعض المفسرين وقال بالثانى أكثر المفسرين. روى الطبرى عن قتاده قوله :

(فان ارتبتم فى شهادتهما استحلفا بعد العصر) .

وعن سعيد بن جبير : (فان صدقهما الورثة قبل قولهما ، وأن اتهموهما أحلفا بعد صلاة العصر) .

وقال الفخر الرازى : (ان ارتبتم اعتراض ، والمعنى ان ارتبتم فى شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما) .

وذكر الطبرى عن السدى : فان رضى أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم تركوا الرجلين وان ارتابوا رفعوهما الى السلطان فذلك قوله :

« تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم »

وفى (روح المعانى) . « ان ارتبتم » والجملة شرطية حذف جوابها لدلالة ما سبق من الحبس والاقسام عليه .

وأعتقد أنه لا وجه مطلقا — بعد كل ما سبق — لقول الكاتب — انه لا يذهب مذهب المفسرين وكان يرجى منه أن يقول انى اذهب مذهب بعض المفسرين الذين يقولون ان الاستحلاف مقيد بالارتياب أما الحبس فهو مطلق •

على أن ما سبق من قوله فى الشاهدين ، وأن المفروض فيهما أنهما ذوا عدل يقتضى أن يرجح الرأى القائل بأن جواب الشرط مادل عليه الحبس والاقسام معا • وقد رد قول الفقهاء وقال انه غير صحيح حين قالوا ان الشاهدين أصبحا متهمين بارتياب أهل الميت فيهما ، رد ذلك بقوله : ان المفروض فى الشاهدين أنهما ذوا عدل • فاذا لم يرض وصف التهمة لهما بارتياب ورثة الميت فيهما — مع أن ذلك صحيح — بفرض عدالتهما فلأن يعفيهما من الحبس أولى وأحق •

وأقول ان قول الفقهاء صحيح وتخطئته لهما فى هذا القول ليست بصحيحة وذلك لأن هذا أمر لا مجال للتردد فيه • الشاهدان ذكرا ما أوصى به الميت ، وأهل الميت شكوا فى شهادتهما • فبماذا نسمى ذلك ؟ هل يمكن أن نسميه اقرار أهل الميت بعدالتهما ، أو رضاء أهل الميت عنهما ، واذا لم يكن هذا اتهاما لهما فما الاتهام ؟

٥ — ويعلل الكاتب لذكر كلمة (مصيبة) فى هذه الآية :

« فأصابتكم مصيبة الموت » بأن ذلك اشارة الى أن هذا الموت الذى يقع فى الغيبة هو شىء أكثر من الموت بما يبعث من حسرة مضاعفة فى المحتضر الذى لم يشهده أهله وفى أهله

الذين لم يحضروا موته ولم يؤدوا ما يجب للميت على الحى ومن هناك جاء التعبير عن الموت بالمصيبة الذى هو فى واقعه شيء طبيعى فى غير تلك الحال التى وقع فيها ؟

وهذا الكلام هنا غريب حقا فكأن القرآن لم يعبر عن الموت بالمصيبة الا هنا وكأن الموت لا يكون موجعا محزنا الا فى الغربة ، فمن قال ان الموت فى واقعه شيء طبيعى فى غير هذه الحال ؟ وهل نزل قوله تعالى : « وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون »[1] • فيمن ماتوا فى الغربة ؟ أما الذين مات أحباؤهم فى الحضر فأنهم لم تصبهم مصيبة ، فلا صبر ولا بشرى ؟

ان القرآن الكريم عبر بكلمة (مصيبة) عن نوازل أخرى :

« **ما أصاب من مصيبة الا باذن الله** »واذا فهى ليست خاصة بالموت فى الغربة •

ولو صح لنا أن نستبدل كلمات أقرب الى الصواب بكلمات الكاتب لقلنا : جمع القرآن الكريم هنا بين المصيبة والموت مع أن الموت فى نفسه مصيبة ، ومع أنه لو قيل فأصابكم الموت لفهم منه مصيبة الموت لسر من الأسرار البلاغية • ذلك أن الموت فى ذاته أمر تفزع منه القلوب والأبدان • ولكنه فى الغربة يكون أشد على النفوس وقعا فصرح بلفظ المصيبة هنا للاشارة الى قسوة الموت فى الغربة •

---

(1) سورة البقرة من الآية ١٥٥ ، والآية ١٥٦ •

وأعود فأقول : ان الكاتب الفاضل ــ فيما أعرف ــ حسن القصد ولكن هــذا الذى نعرفه لا يجعلنا نغض الطرف عن أسلوب التعبير حين يتصل بالقرآن الكريم • ولا عن تنقص الاقدمين من المفسرين • والفقهــاء وتخطئتهم وايهــام أنهم يعملون عمل الفارغين من المماحكة اللفظية والرياضة الذهنية وهم ينظرون فى كتاب الله تعالى ويكون واجبنا فى الذود عنهم ألزم حين يكونون هم على الجادة ، وغيرهم ممن يخطئونهم على ثنيات الطريق •

والله يهدينا جميعا سواء السبيل ••

مُحَمَّدٌ رَسُولُ الْحُرِّيَّة

ــ أولا ــ

هذا عنوان كتاب ألفه أحد العاملين فى الصحافة وقد ضمنه مواقف من سيرة رسول الاسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، واختار الأسلوب القصصى شكلا عرض فيه هذه المواقف .

ولعل القارىء المتوسط الثقافة يدرك بدون عناء أن الأسلوب القصصى يجنى على الحقائق ، ويبالغ فى تجسيمها وتلوينها .

واذا ساغ هذا وهو عندى غير سائغ فى عرض تواريخ الخلفاء والملوك والولاة والقواد ـ كما فعل جورجى زيدان فى رواياته الاسلامية ما رواه لا يسوغ فى كتابة سير الأنبياء والرسل ، ذلك أن أى تزيد فيها ، أو تحوير فى نصوصها يعد انحرافا فى التفكير الدينى .

وقد بذل العلماء السابقون ، والمعاصرون جهودا مضنية لتنقية سيرة الرسول وأحاديثه من كل دخيل عليهما ، فمن غير

المقبول أن نقر كاتبا على زيادته فى سيرة الرسول ما ليس منها، ونرى أنه من الحتم على كل من يوجه نفسه للكتابة عن الاسلام ، أو عن رسوله أن يشعر بجلال الموضوع ، وأن يقدر كل كلمة يسطرها •

وعنوان الكتاب يوحى بادىء ذى بدء — بأن المؤلف سيعمد الى مواقف خاصة من مواقف الرسول يتجلى فيها اقراره لمبدأ الحرية ، ودفاعه عنها والمبادىء التى جاء بها ، وأكد بها حق الانسان فى أن يكون حرا فى عقيدته ونفسه وماله •

ولكن المؤلف لم يبرز هذا الجانب ، بل لم يبد أنه يعنى به عناية خاصة ، وانما عرض لطرف من حياة الرسول ، وأرخ لاكثر غزواته — فى أسلوب قصصى طبعا — دون أن يقف منبها ومشيرا الى ما فى هذه الغزوات من عناية الاسلام بالحرية فى شتى مظاهرها •

ومع أنى لا أميل الى هذا النوع من العناوين ، لأن دعوة الاسلام لم تكن فى جانب من جوانب الحياة الانسانية أظهر منها فى بقية الجوانب ، فقد عالج الاسلام كل القضايا التى تشغل الناس فى حياتهم من اجتماعية وسياسية ، ودينية ، وأخلاقية ، كما بين لهم طريقى الخير والشر ، وأكد لهم أن هناك يوما آخر يحاسبون فيه على أعمالهم ، الى غير ذلك مما عنى به الاسلام : (وكل شىء فصلناه تفصيلا) •

مع هذا كنت أحب للمؤلف أن يتجه فى بحثه الى ما ألزم نفسه به ، وعنون له حتى لا يكون العنوان لمجرد اجتذاب القارىء •

وسواء كان الموضوع متفقا مع العنوان ، أو مختلفا معه فليس هذا من مآخذنا على الكتاب ، هذه المآخذ التى نعنى بها فى هذه الأحاديث ، وانما قدمتها لأنبه على خطأ فى أسلوب التأليف شاع بين المؤلفين المحدثين الذين يرون التأليف عملا تجاريا أكثر منه تعبيرا عن فكرة اختمرت فى رأس المؤلف ، وأحب أن يذيعها فى الناس .

وأول ما نأخذه على المؤلف اعتماده الاعتماد الكلى على ما كتبه (المستشرقون) ولا أظن أن أحدا من الذين لهم ادنى دراية بأغراض الاستشراق ونشأته ، وتطويره يجهل أن هؤلاء المستشرقين لا يلتزمون الأمانة العلمية ، وان من اغراضهم الاولى محاربة الاسلام ، وقرآنه ورسوله ، وتاريخه .

فمن الخطأ والخطر أن يعتمد مؤلف يكتب عن الاسلام — بعامة — وعن سيرة الرسول — بخاصة — على ما زوره هؤلاء الأعداء الذين يتخذون من قداسة البحث العلمى وسيلة للطعن والتجريح ، بل لسوء الأدب ، واستغلال الشعوب .

ولكن من المؤسف حقا أن بعض الكاتبين عندنا لا يرون أوثق من هؤلاء وبعضهم يتابعهم عن هوى ، ومرض نفسى ، وآخرون يتابعونهم عن غفلة ، أو عن شهرة للتعالم وايا ما كان الدافع الى الاعتماد على هؤلاء . فهو جناية وطنية قبل أن تكون جناية دينية ، ونحن نلوم — وبشدة — أولئك الذين يكتبون عن سيرة الرسول بروح هؤلاء المستشرقين وتوجيههم .

عرض المؤلف فى كتابه لقصة (الفيل) ولهذه القصة أصل معروف ، واضح صادق كل الصدق ، فمن الانحراف فى العقيدة

أن تتابع أحداً يتجهم لهذا الأصل ، ويحاول أن يعتسف فى تأويله وتفسيره ، أو يحاول — بخبث ومكر — أن يكذبه .

والمستشرقون قد حرفوا فى هذه القصة ، فادعوا أن (أبرهة) الذى جاء بجيشه ليهدم الكعبة لم يكن يقصـــد مكة ، وانما مر بها فى طريقه لمحاربة الفرس مجاملة من الأحباش للروم ، قالوا: والطريق الطبيعى الممتد من اليمن الى حدود فارس يمر بمكة ، وينتهى عند وادى الرمة أحد روافد الفرات فيما مضى .

وزعموا أن ما أصاب جيش أبرهة كان وباء جاء معه من اليمن، وأن العرب أيقنوا أن ذلك أثر من تدخل العناية الالهية .

وزعم المستشرقون — كذلك — أنه لا يمكن وجود فيل أو فيلة مع جيش أبرهة ، لأنه — كما زعموا — لا يمكن الاحتفاظ بالفيلة فى اليمن ، وتسييرها فى صحارى نجران ، وان الفيلة الافريقية التى قد يكون الاحباش جلبوها الى اليمن من الصعوبة ترويضها حتى ان بعض الفئات من علماء الحيوان يرون استحالة ذلك ، وان الأحباش لم يكونوا على دراية بترويض الفيلة .

هذه بعض مزاعم المستشرقين حول قصة الفيل ، نقلتها عن كاتب كان مسلما ، وقد كان الواجب على كتابنا اذا عرضوا لمثل هذا الموضـــوع أن يرجعوا — أولا — الى القـــرآن الـــكريم ولتفاسيره ، غير انهم ينظرون الى ما كتبه المستشرقون ، فمنهم من يأخذ كل ما قالوه قضـــايا مســـلمة ، وفى ذلك تردى بعض كتابنا ومنهم من يأخذ بعضا كما فعل هذا المؤلف .

فقد تابعهم فى جزئية من هذه الجزئيات ، زعم ـ كما زعموا ـ أن مكة قبل ميلاد النبى بقليل كان يغشاها الوباء (جاء مع آبرهة ملك الحبشة) ، وان جيش أبرهة (لم يكد يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذى كان يعصف بمكة ، فاذا برجال أبرهة يتساقطون مرضى بالجدرى ، ومعهم آبرهة نفسه) •

وغير المؤلف يتخابث ، ويتعالم ، ويدعى أن ذلك تؤيده المصادر العربية ، ويؤيده القرآن •

قال أحد الكتاب فى مقال له بمجلة الرسالة القديمة (العدد ٣٤٨) : (تقدم الأحباش بقواتهم شمالا ، لكنهم لم يكادوا يقربون مكة حتى ألمت بهم كارثة أودت بهم • وبعض المراجع العربية ترجح أن تكون هذه الكارثة هى تفشى الجدرى فى جيش الأحباش ، والقرآن الكريم يؤيد كلام المؤرخين العرب) •

وزعم آن ذلك فى كتاب الكشاف للزمخشرى •

وواضح من كل ذلك ـ وهو كما قلت متابعة لتخريفات المستشرقين ـ القصد الى تكذيب القرآن •

فالقرآن أثبت أن الذين جاءوا بالحملة كانوا (أصحاب الفيل)• ومن البدهى أنه لا يصفهم بذلك حتى يكون معهم فيل ، والمؤرخون العرب والغربيون لا يشكون فى أن الجيش الذى جاء انما هو جيش حبشى ، والأحباش غير معروفين بالفيلة حتى تحمل التعبير (أصحاب الفيل) على أنهم شهروا بذلك ، واذن فلا يمكن اضافتهم للفيل الا اذا كان فى حملتهم فيل •

والقرآن يثبت أن أصحاب الفيل كانوا يريدون بمكة شرا : « ألم يجعل كيدهم فى تضليل » فهم قد جاءوا كائدين ، والكيد لابد أن يكون بالبيت الحرام ، ولا يمكن أن يكون الكيد للفرس، لان الله لا يمنح عنايته لقوم وثنيين ، ثم يمتن بهذه العناية ، ويوجه اليها رسوله الذى بعثه ليدعو الى التوحيد الخالص •

والقرآن يثبت أن الله هو الذى أهلك جيش أبرهة فأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل •

ولا أدرى ما الذى يدعونا الى أن نلجأ الى التأويل فى مثل هذا ، والقرآن قد صرح بأن الله أرسل طيرا ، وأن هذه الطير رمت الجيش بحجارة ، وان هذه الحجارة هدت قوتهم ، وجعلتهم كعصف مأكول ، فما الذى يحدث لو آمنا بهذا كله على ظاهره ؟ والحياة كل يوم تأتينا بالعجائب والغرائب التى تـــكاد تنكرها العقول لولا المشاهدة ؟

ولكن الذى لا حظته أن مؤلف كتاب (محمد رسول الحرية) يميل الى تجاهل كل ما أيد الله به رسوله من أمور غير معتادة • وسنعرض لذلك فيما يأتى من حديث •

أما ما زعمه هذا الكاتب من أن الزمخشرى يرجح ـــ كغيره من بعض مؤرخى العـــرب ـــ ان الذى حل بجيش أبرهة هو الجدرى ، فهو كذب واختلاق •

فالزمخشرى لم يرجح هذا الرأى ، بل لم يذكره بصورة تناقض ما جاء فى القرآن ، وعبارته ـــ كما جاء فى تفسير سورة الفيل ـــ:

(فأرسل الله طيرا سوداء ، وقيل خضراء ، وقيل بيضاء مع كل طائر حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه أكبر من العدسة ، وأصغر من الحمصة) ، وبعد أن يتحدث عن بعض الغرائب فى هذا الموضوع يقول : (وعن أبى سعيد الخدرى : من اصابته — يريد الطير — جدرته ، وهو أول جدرى ظهر على الأرض) •

فالزمخشرى فسر الآية — اولا — بما هو الظاهر منها ثم أضاف — ثانيا — رواية عن أحد الصحابة لم ينف فيها أن الله أرسل طيرا ، بل جعل (الجدرى) ناشئا عن رمى الطير للجيش بالحجارة • فأين الترجيح فى هذا الصنيع ؟

الحق أن بعض الكاتبين يريدون أن يفهموا القرآن على أهوائهم ، بل هم لايريدون بالقرآن خيرا ، وربما أداهم ذلك الى الكذب والافتراء على المؤرخين وعلى المفسرين •

وهذا هو ما عرفته من كل منحرف : يرى الرأى ، ثم يبحث عن رواية أو قول يؤيده ، فاذا وجده أشاد به دون أن يحاول معرفة درجته من الصحة ، ولا بأس عنده أن يتكذب على الرواية ، أو يحرفها •

وانى لاعتقد أن ماجاء به القرآن بما يحاول هؤلاء تحريفه أو تكذيبه لو جاء من طرق أخرى لآمنوا به ، وناضلوا دونه ، ولكنها الرغبة الدفينة فى النفوس التى تبغى الحط من الاسلام، وتشويه نصوصه ، ولكنه — أيضا — الحطب فى حبال المستشرقين والايمان الأعمى بهم ، وبما يكيدون للاسلام ؟

— ثانيــا —

زيد بن عمرو بن نفيل أحد الحنفاء الذين كانوا يتعبدون على ملة سيدنا ابراهيم ، وقد هجر عبادة الأوثان ، وأطال البحث عن التوحيد الخالص ، ونفر مما كان عليه قومه من باطل وزور .

وقد شهد له النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال « زيد بن عمرو كان أمة وحده » وقال يجيب سيدنا عمر بن الخطاب — وهو ابن عم زيد — حين سأله عنه — « غفر الله له ورحمه فانه مات على دين ابراهيم » .

كل هذا حسن ، ولكن مؤلف كتاب (محمد رســول الحرية) يحاول أن يجعل من زيد سلفا للرسول ، يقتفى أثره ، ويســير على نهجه ، فهو يقول متسائلا عن الرسول : (أهو مبشر جديد اذن مثل زيد بن عمرو) ويبدأ ويعيد فى هذا المعنى .

بل يبلغ به الأمر أن يضع محمدا صلى الله عليه وسلم فى مقارنة مع زيد بن عمرو ، ويصرح فى العبارة بتفضيل زيد .

يقول فى صفحة ٣٧ من الكتاب بعد أن ذكر أن محمدا كان فى أحد البلاد يعمل أجيرا باحدى القوافل ، وان زيدا حل هذا البلد

باحثا عن الحقيقة يقول بعد هذه المقدمة : (وعلى مائدة الطعام رفض زيد أن يأكل ما ذبح تحت قدمى تمثال أحد الآلهة وحاور محمدا ... أما محمد فأكل ، ولكن زيدا آثر الجوع على الشبع من ذبيحة نحرت امام صنم ، ولم يذكر عليها اسم رب ابراهيم) .

وللقصة أصـــل فى التاريخ ، ولكن رواية المؤلف لها على هذا الوجه تجعلنا نتهمه بقصد الاساءة الى الرسول ، أو على الأقل تجعلنا نؤكد أنه لا يعنى بتحرى الحقيقة عندما يتحدث عن هذا المقـــام الكريم .

ذكر البخارى هذه القصة ، مبهمة مرة ، ومفصلة مرة أخرى، ففى الأولى روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا زيدا أن يأكل من سفرة كانت قدمت اليه فأبى زيد أن يأكل قائلا : انى لا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه .

وفى الثانية روى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — (ان النبى صلى الله عليه وسلم لقى زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبى الوحى فقدمت الى النبى صلى الله عليه وسلم سفرة فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد : انى لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل الا ما ذكر اسم الله عليه .

ففى هذه الرواية تصريح بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأكل وفى الأخرى ابهام ، فليس فيها ما يدل على أن النبى أكل أو لم يأكل ، فمن البدهى أن تحمل الرواية المبهمة على الرواية المفصـــلة .

على أن العلماء قد أجابوا عما عساه يفهم من الرواية الأولى، وكان من اجاباتهم انها خالية مما يثبت أن النبى أكل .

قال السهيلى : فان قيل فالنبى صلى الله عليه وسلم كان أولى من زيد بهذه الفضيلة ، فالجواب أنه ليس فى الحديث أنه صلى

الله عليه وسلم أكل منها ، وعلى تقدير أن يكون أكل فزيد انما كان يفعل ذلك برأى يراه ، لا بشرع بلغه وأياما كان فقد كان على المؤلف ، وهو يكتب كتابا يشيد فيه بعظمة محمد أن ينأى به عن مقام التفاضـــل • والحق انى لم أفهم لماذا عنى المؤلف بتسجيل هذه القصة على هذا الوجه •

وكما حاول المؤلف أن يجعل النبى صلى الله عليه وسلم مقلدا لزيد بن عمرو وغيره ، ممن تركوا عبادة الأصنام حاول أن يثبت أن محمدا أخذ (علمه) عن آخرين •

فالنبى صديق أبى بكر ، وأبو بكر ــ كما يذكر المؤلف ــ مازال يقرأ ، ويحفظ كل ما ينتهى اليه ، ويحول رحلاته التجارية الى فرص لمزيد من الاطلاع حتى أصبح اليوم أكثر فتيان قريش ثقافة ••• وفيم كان يقرأ أبو بكر ؟ يجيب : كان يقرأ ما انتهى اليه من كتب الأولين •

وطبيعى ــ عند المؤلف ــ ان محمدا ــ وان لم يــكن يعرف القراءة كان يأخذ عن صديقه أبى بكر ما قرأه فى كتب الأولين • بل انه ــ عند المؤلف ــ أيضا ــ أخذ عن الأحبار والرهبان ، فهو يقول : (لقد طالما تحدث محمد بن عبد الله مع صديقه أبى بكر ابن بى قحافة فى هــذا كله ــ يريد ما عليـــه قومهما من ضلالات ــ ولقد رحلا معا ، وعانيا معا ، وشــاهدا الرهبان والكهان فى بلاد بعيدة ، وسمعا معا من الأحبار) •

وليست هذه فقط مصدر ثقافة محمد ، بل ان فتيان قريش ورجالهــا كانوا يجتمعون فى ســاحة حول رجل يروى لهم حكايات تلهب خيالهم المعذب وكان محمد قد شهد هذا كله •

وكان نتيجة لهذا كله — عند المؤلف — ان محمدا صلى الله عليه وسلم أقبل ليملأ مكانه المرتقب مسلحا بفهم كامل لطبيعة دوره ، وبنظرية كاملة عن الحياة والموت ، وبادراك كامل لحاجات البشر المعذبين •

فكأن النبى كان يعد نفسه لهذا العمل ، وكأنه قبل أن يهبط عليه الوحى — قد رسم منهجا دقيقا لما يريد أن يعمله ، وحسبنا بهذا ابعادا فى فهم طبيعة الرسالة •

فالنبى لم يتلق علما عن أحد قبل النبوة ولا بعدها الا عن الله عز وجل ، وقديما ادعى المشركون أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعلم من بشر فرد عليهم القرآن الكريم : « ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين[1] » •

* * *

وعلى نهج المؤلف من مجانبة الدقة ، وتحرى الحقائق ساق قصة بدء الوحى على هذا النحو :

(ولكنه فى تلك الليلة من رمضان أغفى قليلا فنام ، فرأى من يعرض عليه كتابا ويطلب منه أن يقرأ •• فقال له : (ما أنا بقارىء) •• ولكنه ألح عليه أن يقرأ ، فسأله : (ماذا أقرأ) فقال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق •• خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم •• الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » •• وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه فى النوم ، وبينما يستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه اذا

---

(1) سورة النحل آية ١٠٣ •

به وهو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتا من بعيد يقول له : يا محمد •• أنت رسول الله ، وأنا جبريل » •

فالمؤلف ــ كما يبدو من كلامه ــ يحاول أن يؤكد أن بدء الوحى انما كان فى النوم ، وان الذى جاء محمدا انما هو حلم • وهذا ــ كما قلت ــ تقصير فى تحرى الحقيقة •• الا اذا كان للمؤلف هدف آخر •

حديث بدء الوحى حديث معروف مشهور ، روته كل كتب السنة ، وها هو ذا كما رواه مسلم : « عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته أنها قالت : كان أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد ، قبل أن يرجع الى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق وهو فى غار حراء فجاء الملك فقال اقرأ قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ • قال : قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره •• » •

والحديث واضح فى أن الرسالة انما جاءت للرسول يقظة والعلماء يقولون : انما ابتدىء صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحتملها قــوى البشر ، وقال العلماء أيضا : والحكمة فى الغط شغله عن الالتفات والمبالغة فى أمره باحضار قلبه لمــا يقوله له ، وكــرره ثلاثا مبالغة فى التنبيه .

نعم . جاء فى بعض كتب السيرة ان ذلك كان مناما ، ولكن المحققين من العلماء ردوا هــذا القول فلا ينبغى لمن يكتبون سيرة الرسوة بعد هذه التحقيقات أن يتتبعوا بنيات الطريق .

وكما يجمح بالمؤلف خياله فى تصوير حياة الرسول يجمح به أيضا فى تصوير حياة أصحابه ، ولعل أشنع ما وقع فيه المؤلف اتهامه لحمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم ، ورميه بجريمة شنعاء .

فقد ورد فى حديث صحيح رواه البخارى أن سيدنا على كرم الله وجهه شكا حمزة الى النبى صلى الله عليه وسلم : لأنه ــ اعنى حمزة ــ جب سنامى ناقتين له ، وبقر خواصرهما ، وأخبر على النبى أن حمزة فى بيت معه شرب من الانصار ، فذهب النبى مع على ، وزيد بن حارثه : (حتى جاء البيت الذى فيه حمزة فاستأذن فأذنوا لهم فاذا هم شرب فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوم حمزة فيما فعل ، فاذا حمزة قد ثمل محمرة عيناه) .

هكذا أورد البخارى الحديث فى أول (كتاب الخمس) ثم

أعاده عند الكلام على غزوة بدر ، وزاد فيه — والضمير لحمزة — (وعنده قينة واصحابه ، فقالت فى غنائها : الا ياحمزة للشرف النواء)[1] .

وكل ما فى الروايتين أن حمزة — رضى الله عنه — كان قد سكر ، فى جماعة من أصحابه ، وكانت معهم مغنية تغنى .

وقد كان ذلك قبل أن تحرم الخمر ، ولكن المؤلف — كما قلت — جمح به خياله ، فهو يقول : ان حمزة يعود الى سلوكه السابق ، وحياته القديمة من الخمر والغزل ، بعد أن انقطع طويلا عن حياة الليل هكذا (حياة الليل) ، وقد عاد (يجرع من متاع الحياة بظمأ غريب) ، لا يرويه شىء ... حتى لقد ظل ليلة كاملة يشرب الخمر ، مع فاتنتين من بنات اسرائيل ؛ رقصتا له ، وغنتا ، ومتعتاه ، فغدا على المسجد يتحدث عن جمالهما ، ولا يخفى أنه استمتع بهما ، كان يتطوح ويتضاحك ، وهو يقبل على المسجد) .

وأخيرا يعلنها المؤلف صريحة ، وهى نكراء شنيعة ، فيرمى حمزة فى عفته ، دون سند أو دليل ، فيقول : (على أن حمزة أفاق لنفسه ، فأعلن ندمه أمام الجمع ، وأقسم ألا يقرب الخمر ، ولا نساء غير زوجاته) .

واذن فحمزة عند — المؤلف — كان يفجر بفاتنات اسرائيل .

---

(١) الشرف — بضمتين — جمع شارف ، وهو المسن من النوق ، والنواء — بكسر النون — جمع ناوية ، وهى الناقة السمينة .

(كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا) •

حمزة الذى كان قد بلغ الخامسة والخمسين فى ذلك الوقت ، والذى أعز الله به الاسلام مع عمر بن الخطاب ، يقرب نساء غير زوجاته ، والنبى محمد صلى الله عليه وسلم الذى أعلن يوما كلمته الخالدة : (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) هذا النبى الذى لا يتهاون فى حدود الله • يرى حمزة يرتكب الفجور ويراه يعترف ويبكى من الندم فلا يصنع الا أن (يخفف عنه) — وهذه الاخيرة عبارة المؤلف !! •

وهكذا يصف المؤلف عند الحديث عن الصحابة فعلى — كرم الله وجهه — فتن بابنة أبى جهل الصغيرة الجميلة الغنية ، ويضعف حين يدخل مكة فيدير رأسه جمال بنت أبى جهل وبطمعه مالها • لقد أعجبك حسنها وفتنك مالها • هذا هو كل ما فى الأمر •

وعثمان — رضى الله عنه — انما مال قلبه للاسلام ، لان محمدا رجل أمين ، ولأنه والد رقية ، وقد وقع منها فى قلبه شىء •

فحب رقية — اذن — أحد الدوافع القوية التى دفعت عثمان الى الاسلام ، وعبد الرحمن بن عوف — رضى الله عنه — وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، اتهم — كما يذكر المؤلف — من كبار الصحابة بأنه — وهو التاجر الغنى — مازال على الرغم من اسلامه يعطف على أفراد طبقته القديمة من أسرة قريش • مازالت صلاته الشخصية وعواطفه الخاصة أعمق من ايمانه

... وهو لا يأبى القتل لصديقه أمية بن خلف الا لأنه غنى مثله .

هذا هو منطق المؤلف ... وله من أشباه ذلك كثير ، حتى عند حديثه عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يحسن اختيار الألفاظ فى بعض الأحايين .

بقيت كلمة واحدة أحب أن يعرفها المؤلف ، وبعض المؤلفين الآخرين . ذلك أن دخول النبى وأصحابه مكة بعد صلح الحديبية بعام لم يكن للحج ؛ وانما كان للعمرة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يحج فى حياته الا مرة واحدة هى حجة الوداع ، ولكن المؤلف تبعا لبعض المؤلفين المحدثين يظنون أن النبى حج فى ذلك العام الذى تلا عام الحديبية ، فهو يقول مثلا : (وذو الحجة يقترب) . (هذا هو موسم الحج) .

(فقد أقام المسلمون فى مكة ثلاثة أيام وانقضت مناسك الحج) — ولقد اتاح لهم هذا الحج أن يحادثوا كثيرين من أهل مكة (وحشد محمد كل الذين صدوا عن مكة فى العام الماضى) يريد عام الحديبية .

هذا ما رأيناه وقرأناه فى السطور ، أما الذى وعيناه بين السطور فنمسك عنه ، فربما كنا مخطئين فيما فهمناه ، وان كانت الدلائل واضحة ، والله يهدينا جميعا الى سواء السبيل .

ــ ثالثـــا ــ

قرأت (مقالة) فى عدد رمضان فى احـدى المجلات ، وما انتهيت من قراءتها حتى وجُدت الأسف يتملكنى :

أولا : لأن واحدا من بنى الانسان لم يستطع أن يضبط أعصابه أمام كلمة حق لم يرد بها الا وجه الله تعالى فراح يهذى بكلام أبعد ما يكون عن الحق والصواب •

وثانيا : لأن هذه المجلة ــ ولأول مرة فى تاريخها ــ وهى المجلة الوقور اضطرت ــ عملا بحرية النشر ــ أن تسود بعض صفحاتها بهذا الغثاء •

ومما زاد الطين بلة ان هذه المجلة الكريمة علينا جميعا نشرت ما لم يكن ينبغى أن ينشر فى شهر رمضان المبارك •

ولعل المجلة أرادت أن تبين للقراء ــ وبنموذج مكتوب ــ الطريقة المثلى فى المناقشات العلمية عند هؤلاء الذين يتصدون للقول فى تاريخ الاسلام بغير علم •

وقد خطر لى ــ بادىء ذى بدء ــ أن أعفو عن صاحب هذه (المقالة) فلا أثقل على قلبى ولا على القراء بتذكر ما كتب ، ولكنى ذكرت أن الموضوع يتصل بالدين ، وليس من حقى أن أسكت عن بيان وجه الحق فيه ، وذكرت ــ ثانيا ــ قول شاعرنا

شوقى ـــ ويبدو أن تذكره ضرورى فى بعض الأحايين :

والشـــر ان تلقـــه بالخيـــر ضـــقت بـــه
ذرعا ، وان تلقـــه بالشـــر ينحســـم

وهأنذا أكتب هذه الكلمات وأنا كاره أشد الكراهية .

وقبل أن نعاسر (صاحب القالة) الحســـاب على ما قاءه فوق صفحات هذه المجلة نقف وقفة قصيرة عند الكلمة الوحيدة التى تعتبر ـــ على ضـــعفها ـــ فى الموضـــوع ، فقد قال انه (اعتمد على ما روى عن ابن عباس) فى تفسير طير الأبابَيل ، ولو كان جادا يحترم نفسه ، ويحترم القراء لنقل لنا ما قاله هذا الحبر ، ولكن يبدو أن أحدا لقنه هذا الكلام ، وظن فيه مخلصا ، فلما رجع الى المصادر وجد قول ابن عباس لا يؤيد زعمه ، وهذا اذا أحسنا به الظن وتخيلنا ، أنه فهم ما روى عن ابن عباس .

ولعل من واجبه علينا ـــ كما هو واجب أمثاله ـــ أن نشرح له ما غمض عليه ، فنقول ـــ وبالله التوفيق ـــ اعلم ـــ وفقك الله وهداك ـــ أن كتب الحديث والتفسير روت عن ابن عباس فى حادثة الفيل روايات ، منها ما رواه ابن سيرين عنه فى صفة الطير ، قال : كانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الفيل ، واكف كأكف الكلاب ، وما روّاه عطاء عنه أيضا قال : طير سود جاءت من قبل البحر أفواجا أفواجا .

وأظن أن الذى يصف شيئا يعترف بوجوده . وكل من أنكر

ذلك ينبغى ألا يكلم بل اننـــا نتهم عقولنا اذا خطـــر لنا أن نجادله •

أما الرواية التى لقنها (صاحب القالة) وظن أن فيها غناء ، فما رواه عكرمة عن ابن عباس لمـــا أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم الا نفط جلده ، وثار به الجدرى وعلينا أن نشرح (للمؤلف الكبير ، وللعالم النحرير متبسطين ما أمكن حتى يفهم ، فنقول : يا هذا فى العبارة المروية ثلاث جمل فى كل منها فعل وفاعل ؛ وفى الأولى منها مفعول (لم يقع حجر على أحد الا نفط جلده ، وثار به الجدرى) • يقع فعل وحجر فاعل ، و (على أحد) فى مكان المفعول •

وطبعا القتل يقع من الفاعل ، وهكذا فى الجملتين الأخريين • فاذا ، هنا حجر وقع ، وانسان وقع عليه الحجر ، ونتيجة لهذا الوقوع • وهى نفط الجلد وثوران الجدرى • فالجدرى نتيجة لوقوع الحجر • واذن فابن عباس لم ينكر ان حجرا وقع — بل لقد روى عنه فى وصـــفه ، حديث — ولم يجعل الجدرى طارئا مع جيش أبرهة ، ولم يجعله عاصفا بأهل مكة قبل مجىء هذا الجيش •

ولكى يتأكد القراء انا لم نتجن على (صاحب القالة) نعيد مرة أخرى ما كتبه فى هذا الشأن : قال فى صفحة ٢١ من كتاب له •• (ولكن مكة بلد يغشاه الوباء ••• جاء الوباء مع ابرهة ملك الحبشـــة الذى أراد أن يستولى على مكة ، ويهدم الكعبة)•

وقال فى صفحة ٢٢ من نفس الكتاب : (ولم يكد جيش أبرهة

يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذى كان يعصف بمكة ، فاذا برجال آبرهة يتساقطون مرضى بالجدرى : ومعهم آبرهة نفسه ، وما أغنى عنهم الفيل ، وهكذا فر ابرهة عائدا الى صنعاء بفلول جيش ممزق يتخاطف الوباء والموت من بقى من رجاله • فيتهاوون على الطريق كعصف مأكول) •

والواضح من العبارات الاولى أن الوباء جاء مع جيش ابرهة : وأنه أصاب أهل مكة بعد مجىء هذا الجيش ومن الثانية ان الوباء سبق جيش ابرهة وبدهى أن المؤلف لم يفطن لهذا التناقض •

ولكن الذى ينبغى أن يفطن له أن كلا من العبارتين يجعل ما أصاب جيش ابرهة وباء لا صلة له بالطير الأبابيل •

فلعل (صاحب القالة) لا يتمسح بعد ذلك بابن عباس ، ولا بغيره من العلماء ؛ ولعله لا يجىء ليعلمنا ان ابن عباس أمام المفسرين بالاجماع •

وقد كان يمكننا أن نقول له شيئا لا يعرفه ، وهو أنه لم يصح ــ عند العلماء ــ عن ابن عباس الا مائة حديث على كثرة ما روى له ، ولكنا آثرنا أن نسلم له أن ما قاله ابن عباس فى هذه الحادثة صحيح عنه ، ثم نضع يده على التفسير الصحيح •

ومن مغالطات المؤلف ــ أو من عدم ادراكه لا أدرى ــ أن يدعى أن الخلاف بيننا على تأويل آية (الطير الأبابيل) فهو يقول : كل ما فى الأمر انى أخذت بتفسير (طير ابابيل) على

تأويل الآية ولكنك تريد أن تفهمها بظاهر النص ، لقد تابعت أنا ابن عباس ، وتابعت أنت غيره •

وهذا كلام يراد منه ايهـام القراء بأن (صاحب القالة) يعترف بوجود هـذه الآية فى حين أن كلامه واضـح فى أنه يتجاهلها فأين فى كلامه الذى نقلته (تأويل الآية) لقد قال ان الوباء جاء مع جيش أبرهة . أو كان يحدث بمكة قبل مجىء الجيش فهل يفهم من ذلك أن الوباء نتج من رمى الطير بالحجارة ومن رمت ياترى ؟ جيش أبرهة : أم أهل مكة ؟ •

ويعود للمغالطة مرة أخرى فيقول : ما هو الفرق بين أن تفسر الآية بظاهر النص أو بالتأويل •

وأقول له : ان معنى التأويل أن تنظر فى اللفظ فتأوله • أما أن تتجاهله كلية ، فليس هذا من التأويل ولا من التفسير •

وانى لأعجب عجبا لا ينقضى من تبجحه ؛ وادعائه أنه اعتمد على القرآن والتفسير وكتب الدين وأنى لأؤكد له أنه لم يفهم الى الآن الفرق بين تأويل آية ؛ وبين اهمالها ؛ ولم يفهم كلام ابن عباس على وجهه الصحيح لأنه لا يريد أن يفهم الا ماكتبه المستشرقون •

ان تأويل الحجـارة بأنها (الجراثيم) ؛ وان كان تأويلا فاسدا غير انكار الآية فالمؤول يضع النص أمامه ثم يقول فى فهمه ما يشاء عن علم أو عن جهل • أما تارك النص فهو الذى يقول عن شىء صنعه الله بجيش أبرهة : أنه جاء مع الجيش ، ومعنى هذا أن الله لم يرسله عليهم ••• وشتان بينهما •

وما بال (صاحب المقالة) لم يصح عنده فى تفسير الآية الا ما ارتضاه المستشرقون هل يستطيع أن يفتينا ما وجه الترجيح ، وهل جاء ذلك التفسير فى القرآن أو فى كتب التفسير أو كتب الدين التى اعتمد عليها — كما يزعم ؟؟ •

أعتقد أن الجواب هناك عند كلامه على غزوة الأحزاب ، وعدم التفاته أية التفات الى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها » •

وهو يفهم — ان كان عنده أدنى فهم — ما أعنى بهذا الكلام •

لقد علق الآمدى (صاحب كتاب الموازنة) على بيت لأبى تمام ، ولما ضاقت نفسه بما فى البيت من غثاء صاح : فيامعشر الشعراء والبلغاء ، ويا أهل اللغة العربية ألا تسمعون ؟ •• ألا تضحكون ؟ ••

ونحن — والله — قد غثيت نفوسنا بمافى كلمة (المهذب جدا) فأردنا أن نقول كما قال الآمدى ولكنا وجدناه دون ما نريد أن نقوله بكثير •

أظن أن المؤلف بعد ما قلنا — ان كان فهمه — لا يستطيع أن يعيد النظر مرة أخرى ، أن هذا الذى جاء فى كتابه رأى لابن عباس ، أو لأحد من علماء المسلمين • ولم يبق الا أن تحلف له بالله أن ابن عباس مظلوم معه ، ومع أمثاله ممن لا يفهمون •

ثم لنعد الى ما أطال به من سخافات :

أول ما طالعنا به أن كتابه ليس كتاب سيرة ، ثم عاد ليؤكد هذا مرة أخرى . فما معنى هذا ؟ هل معناه انه اذا لم يكن كتاب سيرة فلا بأس بالانحواف فيه ؟ هل معناه أنه اذا لم يكن كتاب سيرة فلا بأس بالانحراف فيه ؟ هل معناه أنه اذا لم يكن شهدوا بدرا وأحدا ما لم يقله أشد المتعصبين على الاســلام وانى لأنقل هنا بعض ما قاله كارها ، آسفا ، خجلا من المسلمين فى كل مكان تقرأ فيه هذه المجلة . قال ــ غفر الله له ــ : (كثير من المسلمين هربوا الى الجو الصاخب فى بيوت اليهود بعد الانهيار النفسى فى غزوة أحد ــ وروع محمد من مناظر الرجال البواسل الذين ناضلوا معه فى بدر وأحد ينحدرون الآن فى يأس قاتل فما يفيق الواحد منهم من الخمر ، مايغادر أماكن القمار الا ليستمتع باحدى المغنيات أو الراقصات اليهوديات ... ولا شىء بعد يملأ القلب والفكر غير الرغبة فى الفرار من الواقع المعذب ... غير احلام مريضة بالغنى والمتاع ، والبحث المضطرب عن العزاء !) .

هكذا يصور المؤلف الذى لسنا (أكثر غيرة منه على هذا الدين) ــ كما يقول فى رده ــ يصور أصحاب محمد بعد أحد : خمر ــ قمار ــ تمتع بالراقصات اليهوديات ــ أحلام مريضة بالغنى والمتاع .

ألا يجد هؤلاء الذين يكتبون عن صحابة الرسول بمثل هذا الأسلوب من يردعهم .

والحق انى لم أفهم وجه دفاعه بأن كتابه ليس كتاب سيرة كما لم أفهم من قبل تعليق صديقنا المفضال الشيخ عبد الرحيم فودة حين كتب معتذرا عن (صاحب القالة) معلقا على مقالى الأول بقوله (ذكر المؤلف فى مقدمة كتابه أنه لم يكتبه للمسلمين كما ذكر ذلك لبعض من لاموه على ذلك من أصدقائه .

فهل معنى هذا ان الكتاب مادام لغير المسلمين يصح لمؤلفه أن يسوغ حقائق الاسلام كما يشاء ، وان يتجنى على القرآن والرسول والصحابة حسبما أراد ؟

ويقول (صاحب القالة) : (فالمقال اهدار لآداب الدين واستهتار متحد لقواعد الجدل) . ماشاء الله !!
المقال الذى يدافع عن القرآن ورسول الاسلام اهدار لآداب الدين فما آداب الدين يا هذا ؟ .

أمن آداب الدين أن تأتى لتدفع عن نفسك ما دمغتك به من كلمة محقة بهذا الهذر الذى لا يمكن أن يستسيغه ذوق سليم ؟ .

أمن آداب الدين أن تعتبر التفسير الصحيح لآية قرآنية كريمة شتائم توجه الى من تجاهل هذه الآية ؟ أمن آداب الدين أن تقول عن حمزة ما يفيد أنه كان يفجر بفاتنات اسرائيل — بعد اسلامه ، بل بعد أن أعز الله به الاسلام — ؟

أمن آداب الدين أن تقول عن (كثير) من صحابة الرسول ممن شهدوا بدرا وأحدا أنهم كانوا يحملون احلاما مريضة بالغنى والمتاع ؟ .

أمن آداب الدين أن تصف من يرشدونك الى الحق بأنهم (جهلاء) .

أمن آداب الدين أن تعتبر من يكتب فى هذه المجلة بأسلوب واضح لا لبس فيه ولا غموض انه يهمز ويلمز .

ولكن لأرفق بك قليلا . انك تقول : (بأى أصل من أصول آداب الدين يبدأ مقاله عنى بقوله عن كتابى ألفه أحد العاملين فى الصحافة (طبعا لم يؤلك الا تجاهل اسمك الكريم وسأرشدك الى أن هذا القول صدر عن أصل عظيم من أصول آداب الدين.

لقد تعودت ــ ياذاك ــ فى كل ما كتبت أن أذكر اسم المؤلف أو صاحب المقال حين أثنى على كتابه أو مقاله ؛ وأن اطوى هذا الاسم حينما يكون فى الكتاب أو المقال ما يؤخذ ديننا عليه ، حتى لا أعرضه لقالة السوء من القراء فليس من قصدى أن أسىء الى أحد ، وانما كل ما أعنى به أن اناقش الأفكار والآراء .

أرأيت ــ أيها الجهبذ ــ المتأدب بآداب الدين عن أية نية حسنة صــدر عنى اغفالى لاسمك (الشهير) فيما كتبته عن كتابكم (العظيم) . المبرأ من كل عيب . الاسبب الصحابة وأشياء أخرى) .

و (صاحب القالة) يرى أن ما فى المقال لا يستحق الرد وهو أسلوب ألفناه ممن لا يستطيعون أن يقولوا شيئا يصلح أن يكون ردا علميا صحيحا ، وقد تأيد هذا بمسلك الـكاتب المفحم ؛ فما فى كلمته شىء يمكن أن يوصف بأنه رد ؛ الكلمة الوحيدة التى موه بها تبين أنه لا يدرك ما وراءها .

وكيف خلا المقال مما يستحق عناء الرد ، والمؤلف قد اهتزت له أعصابه ، وطار صوابه ، وادرك أن (شرف الكلمة) ليس فى أن يقول كل من هب ودب ما شاء ، ولكن فى أن يقول الانسان فيما يستطيع أن يقوله فيه ، وان الحرية الحقيقية ليست أن يتهجم الكاتب على رسول الاسلام ، وعلى صحابته . فى صورة التأريخ لهم ، بل ان يلتزم الأدب مع هؤلاء الذين رفعوا راية الاسلام ، وكانوا كما قال الرسول : (أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) .

وكيف خلا المقال مما يستحق الرد وصاحب القالة لم يستطع أن يرد حرفا واحدا منه لا بما تستر به من الاستظلال الكاذب بظل ابن عباس ؟

ولا شك أنه وقع فى تيهاء مظلمة حين قرأ المقال فلم يدر كيف يأخذ طريقه فراح يدعى أن المقال لا يستحق الرد .

وهل تظن — ياذاك — ان شعرة فى رأسى تتحرك حين تصيح بأن المقال لا يستحق عناء الرد ؟ .

انى لم اكتب المقال ، ولا كتبت يوما مقالا من هذه المقالات التى أبنت فيها عن زيف كثير فى الكتب المؤلفة فى الدين ، وأنا لا انتظر من الذين كشفت عوارهم أن يرحبوا بما أكتب ، فليس جديدا على أن تقول فيما اكتب ما ينتظر لن يقول مثلك فيه .

واذا كنت تريد مما قلت أنك ارفع من أن ترد كما يفهم من مقدمة (قالتك) فانى أقول لك المثل العربى : (أطرق كرا ان النعام فى القرى) .

و (صاحب القالة) يزعم اننا رميناه فى مقالنا (بالكفر) وهى دعوة لا دليل عليها ، فكلمة التكفير لم يخطها قلمى ، ولكن يبدو أنه مسكين لا يستطيع أن يفرق بين الانحراف والكفر ، وكل ما ورد فى مقالى الأول عن كتابه قولى عن اسماعيل وأدهم أنه كان مسلما ، ولكنى لست مبتدئا بهذا وانما أنا ناقل ، فأدهم ألف كتابا عنوانه : (لماذا أنا ملحد) فلم أتجاوز حكاية ما وصف به نفسه .

فنحن لم نكفر المؤلف ، ولا حاجة بنا لتكفيره ونحن نعرف رهبة هذه الكلمة ، وبذلك لم نحكم على ضميره — كما يزعم — وانما حكمنا على ما كتب ، فقلنا انه متابعة للمستشرقين وانه انحراف فى التفكير الدينى ، ولم نقل انه انحراف فى العقيدة ، ولكن صاحب القالة أراد أن يستثير شفقة القراء وأن يظهر بمظهر الحمل المظلوم ليهىء لنفسه الجو الذى (يلقى) فيه مايريد أن (يلقيه) من ألفاظ لا تصدر عن انسان يحترم نفسه .

وقد نسى (سيادته) ان قراء هذه المجلة كلهم مسلمون وكلهم حريص على اسلامه ، وانهم يغارون على كتابهم المقدس ، وعلى سلفهم الصالح كما يغارون على أعراضهم ، وأنهم قرأوا ماكتبناه وبعضهم قرأ كتابه ، وكتب الينا يلومنا على اننا رفقنا به فى مقالنا .

وقد تبجح صاحب المقالة فاستند الى أن القرآن الكريم قص علينا قصصا وما دام قد فعل فلا بأس عليه أن يكتب سيرة الرسول فى أسلوب قصصى واذا كان الله قد نص فما يمنع الكاتب أن يقص — وها قد جرى اسمك على قلمنا يا سيدى الكاتب .

الله يقول : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » ، فهل فهمت كلمة (بالحق) هذه ؟ أما أنت فنتقص علينا ، ما أشرت اليه فى مقالين سابقين ، وفى هذه الكلمة من تهجم على القرآن ، وعلى مقام الرسول ومقام كبار صحابته ، فهل نقول لك : شتان لا والله ولكننا أردنا أن تبين لك خبطك وخلطك وأن نرشدك الى الأدب مع الله ، ومع الناس .

بقيت كلمة نحب أن نقولها لكل من يحاول أن يصيد فى الماء العكر . ولنبين له أن بعض العبارات قد تآكلت من كثرة الترداد ، وانها لم تعد تخيف أحدا .

فقد ألفنا (منهم) ان يرددوا كلمات يظنون انها تحميهم ، ويقولون : من أين جاء أن فى الاسلام طبقة من رجال الدين — لا كهنوت فى الاسلام — لا مجامع كرادلة ، ولا حرمان ولا صكوك غفران .

ونسأل أطفال الكتاتيب ... واعتقد انهم يحسنون الجواب هل من يرد مطاعن وجهت الى الاسلام ، ويحكم عليها بانها انحراف يكون (كاردينالا) ؟ أو من رجال (الكهنوت) ، ومادخل صكوك الغفران فى مثل هذه المناقشات العلمية سيجيبون

موفقين بأن كل ذلك هراء لا يراد به الا الاحتماء خلف هذه الألفاظ ليقولوا ما يشاءون •

وانك ــ يا ذاك ــ تستعدى علينا جماعة المتحررين من القيم الدينية ، ونحن لا نحفل بهؤلاء شيئا ، ومن قبلك ردد هذه الكلمات أناس فما وجدوا من جمهرة المثقفين الا السخرية والاستهزاء •

والكلام طويل وحديث الأفاعى طويل المدى كما يقول شاعرنا شوقى وسأعف ، ولكنى أوجهك الى ابيات من الشعر اذا كنت سمعت بها فذاك ، والا فاسأل عنها أهل المعرفة ليقفوك عليها هذه الأبيات التى مطلعها •

قد تجر العقرب فى أرضنا
لا مرحبا بالعقرب التاجرة

ثم أخيرا لا أدرى أتشكر تلك المجلة أم تنقم عليها لأنها مكنت الرامى من صفاء الثغرة كما يقول العرب ــ ولا تزال فى الزوايا خبايا ، ولكن كما يقولون : ما استقصى كريم قط ، ونحن سنكون معك كرماء •

حُرِّيَّةُ الْكَلِمَةِ فِي الْإِسْلَامِ

لا أعرف دينا سماويا ، ولا قانونا وضعيا ولا مذهبا اجتماعيا، ولا حزبا سياسيا ، لا أعرف شيئا من ذلك أعطى لاتباعه حرية مطلقة ، ولا أظن أنه سيجيء فى المستقبل القريب أو البعيد لون من هذه الألوان الا أن تتجسم الفوضى ذاتها بشرا سويا وتدعو أتباعها الى شريعة من شرائعهـا ، وحينئذ سـوف لاتتركهم يعيشون فى العمران ، وانما ستجرجرهم الى غابة من الغابات يمرحون فيها ويلعبون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام .

فلا يمكن أبدا أن نترك الحرية للناس فى أى نظام كان ، يفعلون كل ما يشاءون ، ويقولون كل ما تجيش به خواطرهم ، حتى الوجودية التى دعت الفرد أن يتحرر من كل موروث من الاعتقادات والتقاليد والعادات ، وان يتخلص من كل المبادىء والأحكام السابقة حتى هذه لم تترك له تلك الحرية مطلقة الزمام بغير هدف ولا غاية ، أى لا تجعل من تلك الحرية غاية فى ذاتها فتنقلب الى ما يشبه الفوضى .

نعم لا يدعو « سارتر » الى مثل هذه الحرية الشبيهة بالفوضى ، وانما يرتب على حرية الفرد نتيجة خطيرة وهى المسئولية وضرورة تحملها ، ثم الالتزام بالفعل والقول[1] .

والدين الاسلامى وهو أقوم نظام عرفته الانسانية ، وأسمى شريعة جاء بها نبى مرسل ما كان له أن يعطى الناس حرية مطلقة — ولو أنه أعطاهم حرية واسعة — لأن مصلحة الجماعة — دائما — مقدمة عنده على مصلحة الفرد و (بعض الحرية فى التقييد وبعضها فى السلب ، واذا تعارضت منفعة الفرد فى اطلاق الحرية ، ومنفعة الأمة فى حدها أو سلبها وجب نزع (ملكية) هذه الحرية ، ولو على الوجه الذى تؤخذ به دور الناس لتطريق شارع[2] .

وقد ضرب الاسلام أحسن مثل للحرية التى منحها لأتباعه . بين فيه أن مصلحة الجماعة أولى بالرعاية ، وأحق بالاعتبار فقال صلى الله عليه وسلم : (مثل القائم على حدود الله ، والواقع كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها . فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) فلابد اذن من الأخذ على اليد حين

---

(١) الأدب ومذاهبه ص ١٤٤ — ١٤٥ للدكتور محمد مندور .
(٢) تحت راية القرآن ص ٣٦٩ للمرحوم مصطفى صادق الرافعى .

يكون استعمال الحرية مهلكا للجميع ، وهذه — فيما أعتقد — قضية طبيعية لا يختلف فيها اثنان ، وفى الحديث — على ماقال ثقات الشراح — تشبيه الواقعين فى الحدود بمن أصابوا أسفل السفينة ، وتشبيه القائمين عليها وهم — الذين يحاون الحلال ويحرمون الحرام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر — بمن يركبون أعلى السفينة • وفيه — أيضا — ارشاد القائمين على حدود الله ان يأخذوا على أيدى المعتدين عليها ، وألا يسمحوا للفاحشة أن تشيع فيهم . ولايأذنوا للفساد أن يستشرى بينهم: فانهم ان لم يقوموا بما افترض الله عليهم من المحافظة على تعاليمه وألقوا حبل العابثين على غواربهم ، وتركوهم يخوضون الباطل خوضا عمهم الله بعذابه •

هذا من الناحية العامة • وأما من خصوص الكلمة ، فالاسلام — على مبدئه العام — لايتركها للناس يقولونها بحرية مطلقة ، ما يجوز منها ومالا يجوز ، بل حدد لهـا حدودا • وشرع لها قوانين ، ونهى عن أنواع منها ، وتوعد عليها ، وبعض وعيده يشير الى العقاب الأخروى فقط . كما فى نهيه عن اللغو من القول ، وعن ترديد الافك الذى يرمى به بعض المسلمين بعضا ، وجاء فى ذلك قوله تعالى : اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم[١] وبعض وعيده أخروى ودنيوى ومن ذلك اذاعة قالة

---

(١) سورة النور ١٥ ، ١٦ .

السوء عن المسلمين واشاعة الأكاذيب التى تضر بجماعاتهم ، أو تؤثر فى سياستهم الحربية أو غيرها وقد جاء فى هذا قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا[1] » والمرجفون ناس كانوا يرجعون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون هزموا وقتلوا ومعنى لنغرينك بهم • لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التى تسوءهم ثم بأن تضطرهم الى طلب الجلاء عن المدينة •

وشبيه بهذا : الارجاف بعقائد الناس ومقدساتهم فان ذلك يوقع البلبلة فى النفوس ، ولا وجه لما يقال أن حرية الرأى نور ولا يخاف النور الا الضعفاء لان ذلك حق يراد به باطل فليس كل مسلم قادر على أن يميز الخبيث من الطيب ، وكثير من الناس حتى المتعلمين منهم سريعوا التأثر بما يسمعون أو يقرأون ومن واجب أولى الأمر أن يحموا عقائد الناس من أن يتلعب بها أهل الزيغ والافساد الذين يتتبعون المتشابه من الآيات كما قال تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله[2] » قال الشاطبى فى الاعتصام :

ومن اتباع المتشابهات الأخذ بالمطلقات قبل النظر فى مقيداتها . وبالعموميات هل لها مخصصات أولا ؟ وكذلك

---

(١) الأحزاب ٦٠ ، ٦١ .
(٢) آل عمران من الآية ٧ .

العكس ، بأن يكون النص مقيدا فيطلق أو خاصا فيعم بالرأى من غير دليل سواه ، فان هذا المسلك رمى فى عماية واتباع للهوى فى الدليل .

ومنه دعاوى أهل البدع على الأحاديث الصحيحة مناقضتها للقرآن ، ومناقضة بعضها بعضا وفساد معانيها أو مخالفتها للعقول[1]) .

والكلمة التى تضر الجماعة سواء كانت كلمة تطعن فى الوطن أو فى الـــدين أو فى الخلق يجب أن تحبس وان يضرب على يد صاحبها ، سيما اذا كان رجلان لا يعنيه الا أن يقــول فليس بصاحب هدف سام يريد أن يصل اليه ، وليس بصاحب مبدأ فى الاصلاح حتى يقال انه انما يريد خير أمته وأى خير فى أن ينشر على الناس ــ مثلا ــ ان القرآن يحتوى على أساطير ، أو أنه أنزل بالمعنى والصياغة من عند محمد غير بلبلة الأفكار ، والتهجم على أقدس ما يعتز به المسلمون .

نفهم أن يفسح للرأى فى الذيوع والنشر اذا كان من وراء نشره ما يفيد الجماعة فيبصرهم عماية يقعون فيها ، أو يرشدهم الى مسلك جهلوه ، أما أن يكون القصد من الرأى هو مجرد الهدم فلا أرى معنى لنشره لأن فى ذلك مساعدة لقلب مريض على أن ينفث من دائه فى صدور المعافين الأصـــحاء ، ومن عجب أنه ما أثيرت حرية الرأى ، أو حرية الكلمة الا حيث وقع شر أجمع

---

(١) جـ ١ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

العقلاء أصحاب الدين الصحيح على أنه شر ، وما رأينا قوما دافعوا عن حرية الرأى المطلقه الا وفى تاريخهم ما يؤخذ عليهم من وجهة النظر الاسلامية ، ولماذا – فقط – لايدور الجدل حول هذه المسألة الا حين يكون طعن يراه رجال الدين العارفون به مطعنا فى دينهم ؟ ان الذين يناصرون الخارجين عن الدين يحجمون أن يقولوا كلمة واحدة حين يتعلق امر بغير الاسلام ، وانا – فى الحقيقه – لا أريد أن أحكم هنا على أن هـذا الرأى أو ذاك خروج على الدين لان هذا ليس غرضى ، وانما الذى أريد أن أقوله اذا كان فى الرأى ما يراه العلماء مضرا بالدين أو يراه الساسة مضرا بالوطن ، يجب أن يحال بينه وبين الذيوع ، ولا يعتبر هذا حجرا على الحرية ، لان الحرية المطلقة كما قلت آنفا – لا تكون الا فى الغاية أو كما يقول الرافعى – رحمه الله – : « ما هى قيمة حرية التفكير وأنت لاتجدها على أعظم شأنها وأكثر أسبابها وأوسع أشواطها الا فى المعتوهين والموسوسين وألفافهم » .

وفى الاسلام نصوص كثيرة تدل على أنه ينبغى أن يحال بين الكلمة الضالة وبين الذيوع ، بل تدل على وجوب معاقبة صاحبها ، ذكر صاحب احدى المجلات ان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – ذكر له رجل يقال له صبيغ فلما ظفر به جلده حتى سقطت عمامته ، قال السيد رشيد رضا معلقا على هذه القصة « وما ذكره المصنف هنا مروى بالمعنى ، وجملة الأمر انه – أى صبيغ – كان أول من وقع منه الشك وتشكيك الناس فى متشابه القرآن ابتغاء تأويله ، وكان قد كثر الداخلون فى الاسلام من

الشعوب المختلفة فخشى عمر الفتنة على الجاهلين فأدبه وأبعده الى البصرة ، ونهى الناس عن مجالسته ومكالمته[1] » .

وروى صاحب هذه المجلة ــ أيضا ــ قصة غيلان القدرى مع عمر بن عبد العزيز ، وان عمر أرسل اليه فلما جاءه ناظره وأرشده ثم قال له ما تقول ؛ فقال غيلان : قد كنت أعمى فبصرتني وأصم فأسمعتنى وضالا فهديتنى . ثم أمسك عن الكلام فى القدر ، فلما مات عمر تكلم فى القدر فبعث اليه هشام بن عبد الملك فقطع يده ثم تكلم فى القدر فصلبه[2] .

وقد روى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما أن أعمى كانت له أم ولد ، تشتم النبى صلى الله عليه وسلم وتقع فيه فينهاها فلا تنتهى ، فلما كان ذات ليلة أخذ المعول فجعله فى بطنها واتكأ عليه فقتلها ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : اشهدوا فان دمها هدر قال صاحب (بلوغ المرام) فى هذا الحديث : ورواته ثقات .

أما قتل المرتد فقد أجمع عليه علماء المسلمين . قال الصنعانى صاحب سبل السلام بعد أن روى حديثا عن معاذ بن جبل : الحديث دليل على أنه يجب قتل المرتد وهو اجماع .

---

(١) الاعتصام جـ ١ ص ٩٣ ، ٩٤ (هامش) .
(٢) جـ١ ص ٦٩ .

وذكر حديث ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : لا يحل دم امرىء مسلم يشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله الا باحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة ، قال صاحب بلوغ المرام فى الحديث : متفق عليه ، أى رواه البخارى ومسلم ، وفسر صاحب سبل السلام التارك لدينه بأنه كل مرتد عن الاسلام بأى ردة كانت فيقتل ان لم يرجع الى الاسلام ، وفسر المفارق للجماعة • بأنه كل خارج عن الجماعة ببدعة أو بغى أو غيرهما كالخوارج اذا قاتلوا وافسدوا فى الأرض •

ومن الأحاديث فى هذا الموضوع قوله صلى الله عليه وسلم : من بدل دينه فاقتلوه ؛ وقد رواه البخارى وأصحاب السنن •

وممن حكى الاجماع على قتل المرتد ابن عبد البر فى التمهيد فى الكلام على حديث (من بدل دينه فاقتلوه) قال : وفقه الحديث ان من ارتد عن دينه حل دمه ، وضربت عنقه والأمة مجمعة على ذلك •

وصاحب المغنى من فقهاء الحنابلة قال : وأجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتد ، وروى ذلك عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، ومعاذ وابى موسى وخالد وغيرهم ، فلم ينكر ذلك فكان اجماعا •

وقال ابن دقيق العيد فى شرح العمدة : فراق الرجل بالردة عن دينه سبب لاباحة دمه بالاجماع .

وقد اختلفت الفقهاء فى المرتدة ، فقال الأحناف : لا تقتل ، وقال غيرهم تقتل ، وجاء فى نيل الأوطار حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل لما أرسله الى اليمن : ايما رجل ارتد عن الاسلام فادعه فان عاد والا فاضرب عنقه ، وأيما امرأة ارتدت عن الاسلام فادعها فان عادت والا فاضرب عنقها . قال الحافظ : وسنده حسن ، وهو نص فى موضوع النزاع فيجب المصير اليه[1] .

وقد قتل أبو بكر الصديق فى خلافته امرأة ارتدت والصحابة متوافرون فلم ينكر عليه أحد ذلك .

ومن عجب انى قرأت لاحد الكاتبين كلمة فى صحيفة يومية جاء فيها بالحرف الواحد : (فان ارتدت الزوجة هى الأخرى عن الاسلام فالاجماع بين علماء الاسلام على تركها حرة مختارة ، وعدم التعرض لها بأى سوء فضلا عن قتلها) والكاتب قد نقل فى كلمته عن كتاب (نيل الأوطار) فبدهى أن يكون اطلع على هذا الخلاف فحكايته الاجماع على عدم قتل المرتدة لا يحمل الا على الجرأة البالغة ، والخيانة العلمية ، فكيف نأمن

---

(١) ج ٧ ص ٣٩٣ .

أمثال هذا على رأى يذيعه أو كلمة يقولها وهو يكذب فى النقل فى موضوع يعلم أن الحديث فيه لن يمر دون درس وتمحيص.

وقد تمسك هذا الكاتب فى عدم قتل المرتد ــ كما تمسك كاتب آخر قبله ــ برأى نسب الى ابراهيم النخعى ، وهذا لم يقل بعدم قتل المرتد صارحة ، وانما حكى رأيه عند استتابة المرتد ، وقد اختلف العلماء فيه ، فقيل يستتاب فان تاب وألا قتل وهو قول الجمهور ، وقيل يجب قتله فى الحال واليه ذهب الحسن وطاووس . قالوا : وانما تشرع الاستتابة لمن خرج عن الاسلام لا عن بصيرة ، فأما من خرج عن بصيرة فلا .

واختلف القائلون بالاستتابة ، هل يكتفى بالمرة أو لابد من ثلاث ، وهل الثلاث فى مجلس ، أو فى يوم ، أو فى ثلاثة أيام ؟ ونقل ابن بطال عن أمير المؤمنين على ــ رضى الله عنه ــ أنه يستتاب شهرا ، وعن النخعى أنه يستتاب أبدا[1] فالذى حكى عن النخعى هو أن المرتد يستتاب أبدا ، قاله عالم جليل فى مقال نشرته احدى المجلات : « ففهم من ظاهر كلامه أنه يرى أن الرجل المرتد لا يقتل ، وقد اغتر بهذا الظاهر صاحب المغنى فقال ، بعد أن حكى الاجماع كما سبق ــ : وقال النخعى يستتاب أبدا ، وهذا يفضى الى أنه لا يقتل أبدا وهو مخالف للسنة والاجماع ا هـ . وكذلك اغتر به ابن حزم فقال فى المحلى : (وقالت طائفة يستتاب أبدا ولا يقتل ، ورد عليه بقوله : ولو

(1) نيل الأوطار جـ ٧ ص ١٩٥ .

صح هذا لبطل الجهاد جملة ، لأن الدعاء كان يلزم أبدا مكررا بلا نهاية » وهذا قول لا يقوله مسلم أصلا ، وليس دعاء المرتد — وهو أحد الكفار — بأوجب من دعاء غيره من الكفار الحربيين، فسقط هذا القول . اهـ .

والتحقيق ان هذا الظاهر من كلام النخعى غير مراد ، لأنه لا معنى للاستتابة الدائمة اذا لم يترتب على عدم الاجابة شيء فيتعين حمله على أنه يستتاب كلما رجع الى الردة ، ولذلك قال الحافظ بن حجر فى فتح البارى : وعن النخعى يستتاب أبدا ، كذا نقل عنه ، والتحقيق أنه فيمن تكررت منه الردة اهـ ...

وقد روى البيهقى فى السنن الكبرى بسنده هذا المعنى عن النخعى أى أنه قال : المرتد يستتاب كلما رجع ، والدليل الصحيح الواضح على مراد النخعى ما ذكره البخارى فى صحيحه تعليقا بصيغة الجزم فقال :

وقال ابن عمر والزهرى وابراهيم أى النخعى : تقتل المرتدة[1] اهـ .

ولا شك أن كثيرين من المثقفين قد دهشوا من جرأة هذا الكاتب ومن جهله معا ، فقد ذكر (ان الفتوى بقتل المرتد

---

(1) من بحث كتبه المرحوم الشيخ عيسى منون عضو جماعة كبار العلماء وشيخ كلية الشريعة سابقا ، وقد رد فيه على كل ما كتبه هذا الكاتب فى الصحيفة اليومية ، لأنه فى الحقيقة ترديد حرفى لبحث كان نشر قبل ذلك .

تسربت الى فقهاء المسلمين عن طريق تقاليد الدولة البيزنطية المسيحية التى تأثر بها المسلمون وفقهاؤهم فى العصر العباسى وقد كانت هذه التقاليد وما زالت تقضى بقتل المسيحى اذا هو غير دينه كما حقق ذلك العلامة (آدم متز) الله . الله . فقهاء المسلمين قلدوا المسيحية فى فتاواها ، فلنحرق اذن كتب الفقه كلها لأن الذين ألفوها كانوا غير أمناء وكانوا مغفلين ، ألم يقل ذلك (آدم متز) ذلك المستشرق العلامة ، ومن ذا بعد آدم متز ؟ .

وذكر الكاتب أن أبا بكر لم يقاتل المرتدين الا بعد أن (هجموا بالسلاح على المدينة المنورة) وأنا — والله — أظن ان المحققين من علماء التاريخ الأسلامى يجهلون هذه الحقيقة : هجوم المرتدين على المدينة ! ؛ وان ابا بكر قاتلهم لذلك ، كأنه لم يقل : والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه .

والقرآن لم يذكر قتل المرتد ، ولذلك فينبغى الا يقتل وهذه الفتوى من الكاتب على حد فتوى الشاعر الاندلسى الذى أخذ الى القاضى والخمر يفوح من فمه فقال :

قرأت كتاب الله تسعين مرة

فلم أر فيه للشراب حدودا

فعلى هذه الطريقة المخمورة نأخذ ديننا ، فما دام القرآن لم يذكر عدد الصلوات فلا نظام للصلاة ، وما دام القرآن

لم يذكر رجم الزانى المحصن ولا تغريب الزانى غير المحصن ، فلا رجم ولا تغريب ، ولا معنى لما جاء فى القرآن(**وما آتاكم الرســـول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**) . و (**أنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم**) .

بل ما لهؤلاء العلماء الاعلام ــ وهؤلاء العالمات الأعلام أيضا ونصوص القرآن ، ألم تقل واحدة منهن فى مجلة اسبوعية ان المرأة قد أخذت كل حقوقها فلا معنى لأن ينقص ميراثها عن ميراث الرجل ، ألم يقل عالم فى بعض كتبه ان ضرب المرأة وحشية ، ألم يقل قدوة هؤلاء جميعا . « للتوراة ان تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاســـمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبـــات وجودهما التاريخى »[1] ؟ .

(وبعد) فان الاسلام وضع قاعدة ذهبية ياليت كل مسلم يضعها أمام عينيه وذلك حيث يقول صلى الله عليه وسلم : (**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**) .

---

(١) الشعر الجاهلى ص ٢٦ للدكتور طه حسين .

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
٣٠٢٦ / ١٩٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

يسر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن يزود المكتبة الإسلامية والقارئ العربي بالمؤلفات الإسلامية المحققة لأول مرة عن نوادر المخطوطات بأقلام كبار أساتذة الجامعات والمتخصصين

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد

للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى ٩٤٢ هـ

الجزء الأول ٦٧٢ صفحة من القطع الكبير - ١٥٠ قرشاً

الجزء الثاني ٦٢٤ صفحة من القطع الكبير - ١٥٠ قرشاً

الجزء الثالث ٦٣٢ صفحة من القطع الكبير - ١٥٠ قرشاً

[illegible]

القاهرة ٣ شارع الأمير قدار المتفرع من شارع الجمهورية

الإسكندرية فرع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية [illegible]

الثمن ٧ قروش